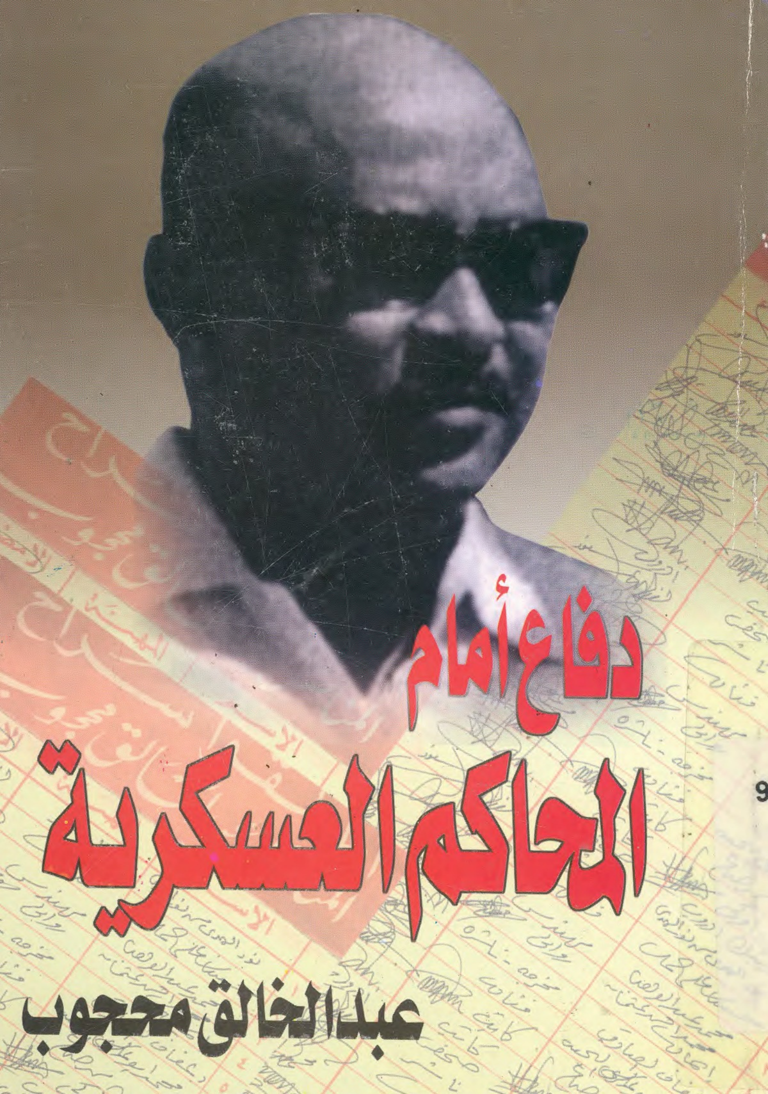
دفاع أمام المحاكم العسكرية

عبد الخالق محجوب



عبد الخالق محجوب

دفاع أمام المحاكم العسكرية

الطبعة الأولى



دار عزة للنشر والتوزيع

الخرطوم - السودان ص.ب ١٢٩٠٩

☎: ٧٨٧٢٠١ فاكس: ٧٩٠٨١٩

مُقدِّمة

في الوقت الذي يتمتع فيه العـــالم بأجمعـــه. بـــآخر منتجـــات تكنولوجيا صناعة الكتاب. شكلاً ومضموناً وانتشاراً. ظل الكتـــاب السوداني رهين الأدراج والملفات والطباعة الرديئـــة. لا يحـــرك ساكناً بفعل أزمة (غريبة) للنشر والطباعة دامت لأكثر من نصـــف قرن من الزمان. وقفت عائقاً معقداً في طريق حركة الفكر والإبداع في بلادنا. وبلا شك ساهمت ضمن عوامل جوهرية أخرى في حالة الانعزال الثقافي التي نعاني منها. نحن أجيال التيه المتتابع.

ورغم كل شئ ظلت سماء بلادنا تحتفل بميـــلاد النجـــوم كـــل مساء.. بجدارة المبدعين والمفكرين الأوفياء الذين ظـــل إنتاجـــهم يتواصل لفتح كوة تضئ قتامة العزلة الكئيبة التي عتمـــت المشـــهد الثقافي ثم الانطلاق لمعانقة العالم والتواصل معه من أجـــل إقامـــة الحوار الإنساني المفتوح وهذا ما تهدف إليه دار عزة في مشروعها المتكامل لأداء واجب التصدي لأزمة النشـــر بـــالوثوق المطلـــوب ابتداءً. وليس من باب التفاؤل (الساذج) ولكن ثقة في نفسها وثقة في

المبدعين والمفكرين السودانيين بمختلف تياراتهم ومنطلقاتهم وأجيالهم الذين هم أول من تأذى من الأزمة. فمعاً سنبلغ ما نريد من مشروع عزة للنشر الذى سيتواصل من أجل المساهمة فى ديمقراطية الثقافة والتثقيف. منبراً للتعدد والحوار الفكرى الرصين ومن أجل آفاق جديدة للكتابة الإبداعية. ومن أجل أن يكون الكتاب ذو القيمة المعرفية العالية منتجاً بشكل يتطابق مع فكرته جمالياً وجودة فى الأداء الطباعة. وفى متناول الجميع أفراداً ومؤسسات.

هذا هو المشروع الحر الذى تنهض به دار عزة للنشر الذى يتسم بحساسية مرهفة تجاه سماته الأولى التى تعنى الحرية والتنوع والجمال الذى يشمل كل شئ وهى تشكل العصب الحى فى كل ما تسعى إليه وتعمل من أجله، المعرفة للجميع.



دار عزة للنشر والتوزيع

الخرطوم - السودان

إهداء

إلى تلك الأسرة الصغيرة التى
أورثها الشهيد عبد الخالق محجد
الأفكار النيرة وصلابة النضال الحى
إلى نعمات مالك وعمر ومعتز

نور الهدى

عبد الخالق ورهطه

يشتمل هذا الكتيب على قطع صغار مما كتبه الشهيد الأستاذ/ عبد الخالق محجوب فى منعطفات حرجة للحزب الشيوعى السودانى عانى فيها الأمرين من تبغيض دوائر سياسية ودينية منفذه للناس فيه، وما يجمع بين هذه الكلمات القصار لجوء عبد الخالق إلى الاستعانة بوقائع من سيرته الذاتية كى ينفى عن حزبه وفكرته الماركسية الشبهات وشهود الزور، فقد كتب الكلمة الأولى **كيف أصبح شيوعيا** فى جريدة الميدان عام ١٩٥٤م بعد صدور منشورات نسبت بهتانا للحزب الشيوعى تهاجم الإسلام وتشيد بالفكرة الماركسية. وقد بلغت فظاظة هذا البهتان بين الناس حدا وقف معه السيد/ عبد الرحمن المهدى (١٩٦٠م) بجلالة قدره فى مسجده بحى ودنوباوى بأمدرمان يحول بين الخطيب، الذى روج للمنشور الشيوعى المزعوم وأدانه، وبين الناس ونهى السيد/ عبد الرحمن عن الفتنه وأخذ الناس بالشبهات والكلمة الثانية كتبها عبد الخالق فى صورة خطبة دفاع عن نفسه ومعتقده وسياسته أمام محكمة انعقدت لمحاكمته فى عام ١٩٥٩م تحت ظل حكم المرحوم الفريق/ إبراهيم عبود (١٩٥٨ - ١٩٦٤م). هى المحاكمة التى

سميت، إمعاناً فى الترويج لخطرها، باسم "محكمة الشيوعية الكبرى"، وقد انفضت المحكمة بالخيبة حتى قبل أن يلقى الشهيد عبد الخالق كلمته المعدة بفضل شاهد غصبه الاتهام غصباً ليكون "شاهد ملك". غير أن هذا الشاهد لم يخش الترويع والأغراء، وانتفض لضميره، قال بما يعرف حقاً أمام المحكمة، وانهارت محكمة الشيوعية الكبرى.

والكلمتان بحق شئ واحد بجامع عنصر السيرة الذاتية لعبد الخالق فيهما. بل سيرى القارئ المتمعن للكلمتين أن الأولى منهما بالحق هى بمثابة مسودة باكرة بالكلمة الثانية، فالكلمة الثانية هى تطوير نافذ مستفيض دقيق العبارة وعديها للأفكار والتاريخ التى وردت فى مسودة ١٩٥٤م. أوجز أدناه هذه الأفكار والتواريخ الجامعة للكلمتين.

أولاً: أن اعتناقه للماركسية لم ينجم عن نزوة أو غرض شخصى أو ثمرة شذوذ فكرى، فقد وقعت له الماركسية ووقعت لجيله، فى سياق حقائق السياسة الاستعمارية والوطنية فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية. فقد وقف هذا الجيل الشاب على قصور الفكرة الوطنية التى

كانت محط الأمل فى تحرير البلاد من الاستعمار. وقد ترتب على وقوف الجيل على كساد الفكرة الوطنية أن أثير بينهم السؤال: **هل كل من يشتملهم الوطن وطنيون؟**، حين رأوا ممالأة جماعات غالبة من السودانيين للإنجليز قد رهنوا أنفسهم بشعارات وطرائق وحدود الدولة الملكية المصرية لا بالشعبين المصرى والسودانى، وقد جاءت الماركسية لجيل عبد الخالق بتحليل للاستعمار أرضى خاطرهم المروع ببؤس الفكرة الوطنية.

ثانياً: أن الماركسية لم تقع له كفكرة بديلة للدين أو تراث السودانيين، فهو لم يعثر على الماركسية كباحث فى كنه وسداد الأديان بل كمناضل يريد لوطنه العزة والحرية. فقد استعان بالماركسية لكى يقف على حقيقة الاستعمار كعدو اضطهد السودانيين بغير فرز للألوان أو الأديان أو الأجناس. فقد قال فى كلمته عام ١٩٥٤م:-

"لم نسمع أن نقرأ فى التاريخ أن الجيش الذى غزا بلادنا عام ١٨٩٨م هو جيش يرفع راية القرآن أو السنة، ولم نسمع فى يوم

من الأيام أن المؤسسات الاحتكارية البريطانية التى تفقر شعبنا جاءت على أساس الدين الإسلامى أو المسيحى".

وسيطور عبد الخالق هذه الفكرة بشكل أدق فى تقريره المسمى "قضايا ما بعد المؤتمر الرابع" ١٩٦٨م حين قرر أن اعتناق الماركسية ليس مناسبة أو تبريراً ليخلع المرء دينه وإنما هو تخصيب لذلك الدين بالمعرفة المعاصرة. وعاد إلى الفخر بالتراث الاجتماعى للسودانيين فى خطبه دفاعه عام ١٩٥٩م حين نسب الماركسية وحزبها فى السودان إلى الصراحة وقولة الحق والشورى والرجولة فى ملاقاة الاستعمار، وقال أن هذه الصفات مركزة فى القيم السودانية الجماعية التى لم تفسدها خبائث التملك الرأسمالى وروح الفردية الناشئة عنها.

"البريطانية التى تفقر شعبنا جاءت على أساس الدين الإسلامى أو المسيحى".

وسيطور عبد الخالق هذه الفكرة بشكل أدق فى تقريره المسمى "قضايا ما بعد المؤتمر الرابع" ١٩٦٨م حين قرر أن اعتناق الماركسية ليس مناسبة أو تبريراً ليخلع المرء دينه وإنما هو تخصيب لذلك الدين بالمعرفة المعاصرة. وعاد إلى الفخر بالتراث

الاجتماعى للسودانيين فى خطبه دفاعه عام ١٩٥٩م حين نسب الماركسية وحزبها فى السودان إلى الصراحة وقولة الحق والشورى والرجولة فى ملاقاة الاستعمار، وقال أن هذه الصفات مركزة فى القيم السودانية الجماعية التى لم تفسدها خبائث التملك الرأسمالى وروح الفردية الناشئة عنها.

ثالثا: أن الماركسية قد وقعت له فى بحثه عن الحقيقة والمعرفة مما هما فرض واجب على كل شاب ومتعلم، فهى لم تأته من باب السياسة وحدها، ففى كلمتيه عام ١٩٥٤ - ١٩٥٩م يتحدث عبد الخالق عن تبعة المثقف فى البحث الشغوف عن ثقافة تنسق العقل والوجدان وتباعد بين الواحد وبين التناقضات العقلية والعاطفية. فقد وجد عبد الخالق والشباب المتطلع من جيله بلدهم فى لطام بين السلفية الفكرية الدينية وبين التهافت المبتذل على الغرب، وجاءت الماركسية للجيل بالشفاء من هذا الاضطراب وعبر عبد الخالق عن عذوبة هذا الشفاء بقوله "أن جيله قد وقف على مشارق الماركسية" فطاب - مراحها والمشرب - لأنها مكنتهم من رد الجميل للشعب الذى انفق عليهم بلا

منه، وسيجد القارئ أن كلمة عبد الخالق أمـــام المحـــاكم العسكرية هى ولاء لهذا الشباب المعافى فى ظلال فكـــرة مبتكرة كانت البلسم لشفاء العقل والروح، فحين وصل جيل أربعينات القرن الماضى إلى سخاء الماركسية الثقافى فقـد كان وصل حقا، فى قول عبد الخالق، إلى حقيقة بسيطة فى معناها مروعة للخيال والعاطفة فلم تحده الحدود أو تقـف دونه السدود. ولبيان دقائق هذا المعنى أرفقنـــا بالكتـــاب ملحقا حوى كلمة نعى فيها عبد الخـــالق رفيـق عمـره المرحوم/ عمر محمد إبراهيم (وقد سمى عبد الخالق أبنـــه عمرا تيمنا به)، وسيقف القارئ بالكلمة على محبة عبـــد الخالق لجيل الأربعينات الذى سماه "ذلـــك الرهـط مـن الرجال الشرفاء" لدوره الفذ فى غرس الالـتزام بالشـعب والاشتراكية عميقا فى وجدان السودانيين، ذلك الجيل الذى أثمر الكثرة الكاثرة من جند الشعب، والشباب الذى اكتـهل وشاخ فى خدمة أنبل قضية إنسانية: قضية الاشتراكية.

ولمجرد التداعى تضمن الكتاب دفاع عبد الخالق أمام المحكمـة الميدانية العسكرية الإيجازية التى قضت بإعدامه فى ملابسات فشل حركة ١٩ يوليو ١٩٧١م. وهى محكمة أخرى لم تصمد لعارضـة

عبد الخالق وخلق الرجال الذين اتصلوا به وبفكره، فقد اضطـــرت المحكمة المنفلتة إلى عقد جلساتها سرا بعد جلســـة علنيـــة نشـــرنا دقائقها هنا. وقد لجأت المحكمة إلى هذا الدس لأنها أخفقت فى جعل المواطن الشهم المرحوم/ حامد الأنصارى يشهد بالزور. فى ظـــل قبة الإرهاب المنصوب فى أيام ذلك السودان فى يوليـــو ١٩٧١م، ضد الشهيد/ عبد الخالق والحزب الشيوعى. وحيـــن الحـــق أبلـــج والباطل لجلج توارت المحكمة مــــن ضـــوء النـــهار وكـــأميرات الصحفيين إلى عتمة الليل... كالخفافيش.

سأل اللواء (م)/ خالد حسن عباس، الذى فقد شـــقيقا لـــه فـــى انقلاب ١٩ يوليو، الشهيد/ عبد الخالق محجوب بعد القبض عليـــه مباشرة فى تحقيق مرتجل سخيف تصعلك فيـــه نمـــيرى صعلكـــة مشهورة... سأل خالد عبد الخالق:

خالد: أنت تعيش على ظهر الناس [أى أنك بلا عمل معروف]. ماذا قدمت للبلد، بماذا ساهمت!.

عبد الخالق: ساهمت بالوعى، توعيه الجماهير بقدر ما أملك.

وهذا الكتيب بعض شجرة نسب هذا الوعى.

د. عبد الله على إبراهيم

دمعة... عبد الخالق ينعى أخاه/ عمر محمد إبراهيم
(مارس، ١٩٦٦م)
إليك نحنى الهامات.. وننكس الأعلام

اسمح لى بكلمة اختزلتها فى جوانحى سنوات طيلة غيبتك وكان بودى أن أقولها لك وقد احتوتنا داركم الودود فى برى حيث تخضر ذكريات زاهية لن تقوى يد الدهر على مسها إلا حيـاة وازدهـاراً وروعة. تسألنى كيف حالكم؟، وأقول، مدركاً حنينـك إلـى أرض الوطن، وأنت الذى عهدناك لا تتناول بالحديث إلا مـا جـد مـن الأمور. منذ عشرين عاماً شهدنا حيوية الشباب وتطلعه، وتقحمنـا الحياة، وتبصرنا بالجديد الذى تعلمناه، فعرفنا طرفاً مـن سـرها، وصرنا نكتشف دروبها وشعابها، وما افترقنا منذ سنوات إلا طلبـاً للمزيد من معرفة كنهها.

كل أصدقائك ورفاقك بخير، من عرفتهم فى العاصمـة وفـى الجزيرة وفى عطبرة وأينما وجد جمع لأهل السودان.

إن القلة أصبحت كثرة وبين جيش الاشتراكية آلاف من الوجوه المشرقة رجالا ونساء تبهرهم الحياة وتسد أعينهم مشارق المستقبل

الزاهر، أتذكر ذلك الفيض من الحياة قبل عشرين عاما وجمعنا يغترب فى شوارع القاهرة يتزود بالعلم ويسهم فى صنع الحياة الجديدة إنه بيننا فى آلاف تلك الوجوه يرسلون إليك تحيتهم، وتفيض قلوبهم امتنانا لرائد من رواد الفكر الاشتراكى. سلام عليك فى الخالدين عن أصدقائك القدامى وهم هم كما عهدتهم ودا وثباتا كالنجمة القطبية، كانوا يودون لقاءك، فهل أسرعت أم ابطؤا فى اللقاء؟ وكثيرا ما أسرع أصدقاؤنا وأنت فى أثرهم: صلاح بشرى، ومحمد حسن، وعثمان خلف الله، وأحمد القرشى وغيرهم كثيرا فهل بلغتهم التحية.

سلام عليك من كل القلوب المؤمنة الطاهرة، سلام عليك صديقا ورفيقا فى أنبل قضية عرفتها الإنسانية.

إن الحياة تمنح مرة واحدة، فما أسعد من قال وهو يفارقها، لقد قضيت حياتى فى خدمة أنبل قضية إنسانية: قضية الاشتراكية.

عن أصدقائك ورفاقك

عبد الخالق

الشيوعية في السودان لا تحارب الدين الإسلامي

الرجل الشريف يحارب الفكرة بالفكرة[1]

كيف أصبحت شيوعيا؟؟

بقلم [عبد الخالق محجوب]

---

[1] الأيام العدد ٣٠٦ التاريخ ٥/ ١٠/ ١٩٥٤م:-

وكانت جريدة الأيام قد نشرت فى عددها ٣٠٤ الصادر فى: ٣/ ١٠/ ١٩٥٤م:

أن منشورات قد وزعت فى العاصمة وأرسلت لبعض الناس بالبريد تهاجم الدين الإسلامى وتنادى بحياة الشيوعية ويقول الذين قرؤوها إنها [مقلب] غير ناضج وطريقة جديدة مبتكرة فى محاربة الشيوعية تقوم بها بعض الهيئات

ونشرت جريدة الميدان فى عددها الثانى عشر بتاريخ: ١٤/ ١٠/ ١٩٥٤م:

الخبر التالى بعنوان: السيد عبد الرحمن المهدى يحذر من الفتنة: فى صلاة الجمعة بمسجد عبد الرحمن المهدى بودنوباوى وقف شخص اسمه الغبشاوى وخاض فى حديث الإفادة وأعاد على المصلين منشور شيخ العلماء وحرض الناس وأثار الخواطر ودعا للفتنة بصورة عمياء وكان فى الصلاة عدد كبير من الأنصار من العاصمة ووفود من دارفور وغيرهم وبسبب هذه الإثارة هاج الناس وأصبحوا فى حالة توحى بأى شئ. وكان السيد الأمام عبد الرحمن المهدى حاضرا كعادته فى كل صلاة جمعة فلما رأى التحفز البادى على الوجوه لم يطق صبرا على هذا الأمر الذى كان مفاجأة فنهض وخطب فى الناس وقال أنه حسب ما يعلم فإن المصدر الحقيقى للمنشور المشار إليه تحيطه الشكوك والريب ولم يثبت أنه من عمل الشيوعيين وأضاف إلى ذلك أنه قرأ فى

وزعت بعض الدوائر منشورات باسم الشيوعيين فـــى الأيـــام القليلة الماضية تدعو فيه المواطنين إلـــى نبـذ الديـن الإسـلامى وإسقاطه واعتناق الشيوعية. وعلى أثر هذه المنشـــورات نظمـت حملة فى المساجد ضد الشيوعيين الذين يهاجمون معتقدات أغلبيــة سكان السودان، وطلب بعض خطباء المساجد فى ذلك اليوم بوجوب إهدار دم الشيوعيين.

الصحف أن أحد الشيوعيين قد نفى أهم يحاربون الدين وهذا يكفينا كمسلمين، وفوق هذا فـإن الإسلام لا يأخذ الناس بالشبهات.

ثم نبه السيد الإمام إلى حقيقة أخرى هى أن ذلك المنشور لم يصل إلى كل الهيئات الدينية فلـــم يصل إلى طائفة الأنصار وإنه أتصل بطائفة الإسماعيلية فقالوا أنه لم يرسل لهم ومن هذا يفهم أنــه قد قصد به جهة خاصة حدها ولو كانت المسألة دينية بحتة لأرسل لكل الهيئات الدينيـــة بغـــير استثناء.

وحذر السيد عبد الرحمن من هذه الفتنه التى قد يثار أتباعه للاندفاع فيها بحماسهم فيصبحــــون صيحة فى مسألة لا تخصهم ولا مصلحة فهم فيها وختم قوله بالتوجه إلى أتباعه بالا يخوضـــوا فى هذا الأمر وأن يجتنبوا هذه الفتنة وقال أنه لا توجد سلطات للمسلمين فى هذا البلد اليوم وليـــس من حق أحد أن يهدر دماء الناس.

تنشر هذا الحديث تسجيلاً للموقف ونحن كما يعلم الناس لسنا من طائفة السيد عبد الرحمن ولا من الحزب الذى يشمله برعايته ولكن رغم هذا فإن الأمانة تقتضى أن نوضح هذا الموقف لكـــل السودانيين.

دفـاع عــن أفكــارى:-

أن هذه الحوادث لها خطورتها وهى في رأيى تمسنى شــخصيا لأنى أنتهج السبيل الماركسى فى ثقافتى وتصرفاتى وأؤمن بالنظرية العلمية الشيوعية، وكل معارفى وأصدقائى يعرفون منذ زمن بعيــد هذه الاتجاهات والثقافة التى أحملها، وأننى أتحمــل مســئولية إزاء هؤلاء الأصدقاء والمعارف وبينهم من يحمــل اتجاهــات معاديــة لأفكارى بينهم من حظى بثقافة إسلامية أو مسيحية وبينهم الشخص العادى الذى يضطرب فى الحياة دون فلسفة أو ثقافة. أن انزعــاج هؤلاء الأخوان يضع على عاتقى مسئولية أدبية فى توضيح رأيــى وفق الثقافة التى اعتنقتها ثم أن المدرسة الثقافيــة الشــيوعية مــن المدارس الفكرية التى تعيش فى بلادنا منذ فترة طويلة - وهى ككل ثقافة تسعى إلى توسيع دائرة مؤيديها، وقد دارت بينها وبين مؤيدى المدارس الفكرية حرب مازالت قائمة حتى اليوم بل هى أشــد الآن منها فى أى وقت مضى. أن اهتمامى الكبير بمصير هــذه الثقافــة التى اعتد بها وأكن لها كل احترام وتجله يلقى على أيضا مســئولية فى توضيح موقفها إزاء الحوادث الأخيرة لكى أوضـــح الموقــف وغوامضه استميح القارئ عذرا إذا بسطت له جزءا من تجربتــى المتواضعة: **كيف أصبحت شيوعيا.**

تجـــاربى:-

في نهاية الحرب العالمية، عندما دب الوعى الوطنى فى أرجاء بلادنا انتظمت كغيرى من الطلبة المتحمسين فى غمار هذه الحركـة يحدنى أمل هو المساهمة فى تخليص بلادى من النير الاستعمارى، تحدونى حالة الفقر والبؤس التى كان ومازال يحـــس بـــها جميـــع المواطنين إلى مستقبل مشرق ملئ بالعزة والكرامة. وقـــد علقـــت الآمال حينذاك على زعماء حزب الأشقاء في تحقيق تلك الأهـــداف التى آمنت بها وهكذا وبهذه الآمال العراض والأمانى الحلوة ابتدأت تتضاءل أمام ناظرى، في القاهرة وبعيدا عن أعين الســـودانيين دب التراخى في بعض هؤلاء الزعماء واستسلموا للراحة الشـــخصية. وفى غمار هذه الحياة الجديدة تناسى هؤلاء الزعماء ما قالوه بـــأن [قضيتنا لا يحلها إلا الذين ودعونا فى الخرطوم واســـتقبلونا فـــى القاهرة] ووصلوا وكانت تصريحاتهم بالأمس أن قضيـــة الســـودان سوف يحلها صدقى الأمين؟ والنقراشى الأميـــن؟ وعبـــد الـــهادى الأمين... تساءلت ضمن عدد من الشباب الحر، لماذا يتنكر الرجال لما قالوه بالأمس؟ ما هو السر فى هذه التحولات التى طرأت علـــى الزعماء ولا يدرى الشعب كنهها؟

نظريـة سياسـية:-

وبمجهودى المتواضع وحسب حدودى الفكرية اتضح لـــــى أن هؤلاء الزعماء لا يحملون بين ضلوعهم نظرية سياسية لمحاربـــة الاستعمار وأنهم ما أن دخلوا غمار مجتمع متقدم معقد كمصر حتى صرعتهم النظريات المتضاربة فــأصبحوا يتقلبــون كمـا تشـاء مصالحهم، عرفت أن الاستعمار له نظريته السياسية التى يحـارب بها الشعوب الضعيفة وأن هذه النظرية نشأت.على تطور الرأسمالية الأوربية خلال القرن الخامس عشر.

وإذا كان لشعبنا المغلوب على أمره أن يتحرر فلابد أن يســير على هدى نظرية توحد صفوفه وتصرع الاستعمار – على هــدى نظرية تسلط أضواءها على كل زعيم أو مــتزعم ولا تــترك لــه الفرصة لجنى ثمار جهاد الشعب لنفسه – على هدى نظرية سياسية تخلص الشعب :ن الجهل والكسل الذهنـــى الــذى يتركــه كقطــع (الشطرنج) تحركه أيدى الزعماء أينما شاءت.

لقد هدأنى هذا الهد المتواضع إلى النظرية الماركســية – تلــك النظرية السياسية التى نشأت خلال تطور العلم والتى تقــوم علــى أساس اعتبار السياسة والنضّال من أجل الأهداف السياســية علمــا

يخضع للتحليل. ولأول مرة عرفت أن الاستعمار ليس شيئا أبديـــا وإنما هو تطور اقتصادى للرأسمالية الأوربية وأنه كبقية الأنظمـــة خاضع للتطور أى أنه سينتهى ويحل محله نظـــام جديـــد. وهكـــذا عرفت أن جميع الزعامات السياسية التى لم تهتد إلى هذا التحليـــل العلمى للاستعمار واكتفت بإثارة العواطف ضد [الأجانب] لم تصـــل إلى أهدافها ولم يجن الشعب المؤيد لها ما كان يصبو إليه، أســـماء كثيرة تحضرنى - سعد زغلول وغاندى ومصطفى كمال أتـــاتورك وكذا - واقتنعت بأن زعماءنا يسيرون فى نفس الطريق وأننا لـــن نجنى من ورائهم أكثر مما جنت الشعوب الأخرى التـــى ســـارت وراء تلك الأسماء.

تناســـق الماركســـية:-

وكشخص وضعته ظروف الحياة لا كزارع أو صاحب أمـــلاك - بل كمتعلم نال بعض التعليم المدرسى، كان لابد لى كغـــيرى أن أقوم بجهد لأنال شيئا من الثقافة ينفعنى فى تطوير فكرى وتوسيعه. لم أكن أهدف إلى ثقافة ولكن الثقافة التـــى تعطـــى تفكـــيرا غـــير مضطرب أو متناقض للظواهر الطبيعية والاجتماعية. أن الكثـــيرين يقرؤون أن الثقافة الغربية ينقصها التناســـق وهـــى مضطربـــة لا

استقرار لها. وليس أدل على هذا الاضطراب من تزعـــم الفلســفة الوجودية لهذه الثقافة.

أن النظرية الماركسية تمتاز بالتناسق ولأول مرة تضـــع قيمــا عالمية للأدب والتاريخ والفن والفلسفة مما كنا نعتقد أيام الدراســـة أنها بطبيعتها لا يمكن أن تكون لها قيم أو تشتملها قواعد وألا فقدت طبيعتها. أننى كفرد يحاول تثقيف نفســـه وجـــدت فـــى النظريـــة الماركسية خير ثقافة وأنقى فكرة.

إن تجربتى البسيطة توضح أننى لم اتخذ الثقافـــة الماركســية لأننى كنت باحثا فى الأديان ولكن لأننى كنـــت ومـــازلت أتمنـــى لبلادى التحرر من النفوذ الأجنبى – أتمنى وأسعى لاستقلال بلادى وإنهاء الظروف التى حطت علينا منذ عام ١٨٩٨م أتمنى وأســـعى لإسعاد موطنى حتى تصبح الحياة فى السودان جديرة بـــأن تحيــا ولأننى اسعى لثقافة نقية غير مضطربة تمتع العقل وتقدم البشـــرية إلى الأمام فى مدارج الحضارة والمدنية.

الشـــيوعية والإســـلام:-

هل صحيح أن الفكرة السياسية الشيوعية فى الســـودان تدعـــو لإسقاط الدين الإسلامى؟ كلا أن هذا مجرد كذب سخيف، أن فكرتى

التى أؤمن بها تدعو إلى توحيد صفوف السودانيين المسلمين منـــهم والمسيحيين والوثنيين ضد عدو واحد هـــو الاســتعمار الأجنبــى ويهدف واحد هو استقلال السودان وقيام حكم يسعد الشعب ويحقــق أمانيه. وأن القوة التى تقف حائلا دون إسعاد وحريــــة الســودانى المسلم أو المسيحى... لا يمكن أن تكون الإسلام لأننا لم نســمع أو نقرأ فى التاريخ أن الجيش الذى غزا بلادنا عام ١٨٩٨م هو القرآن الكريم أو السنة ولم نسمع فى يـــوم مــن الأيــام أن المؤسســات الاحتكارية البريطانية التى تفقر شعبنا جاءت على أســـاس الديــن الإسلامى أو المسيحى. أن الفكر الشيوعى ليس أمامه مـــن **عــدو حقيقى فى البلاد سوى الاستعمار الأجنبى ومن يلفون لفـــه. أيــن هذا الهدف من محاربة الدين الإسلامى؟.**

أن الفكرة الشيوعية تدعو إلى إخضاع العلم والمعرفة لحاجيات البشرية من بحوث علمية وطبية وأدبية وتشـــذيب الإنســان مــن الخوف والحاجة بإنهاء الظروف الاقتصادية والفكرية التى تنشـــر الخوف من المستقبل وتدفع الإنسان تحت ضغط الحاجة إلى درك لا يليق بالبشر من سرقة ودعارة واحتيال وكذب، أين **هذا الهدف مــن محاربة الدين الإسلامى؟** بقى أن أقول للدوائر التى أصدرت هـــذا

المنشور: أن الرجل الشريف يصرع الفكـــرة السياســـية بـــالفكرة السياسية ويعارض فكرة معينة بالحجة والمنطـــق - أن محاولـــة تزييف أفكار أعدائكم - أو من تتوهمون أنـــهم أعداؤكـــم - بـــهذه الطريقة الصغيرة لا تليق، فوق أنها عيب فاضح. أما أساليب الدس فهى من شيم الصغار - الصغار جدا حتى ولو كـــبرت أجســامهم وتوهموا فى أنفسهم علو المقام.

دفاع الأستاذ عبد الخالق محجوب:-

منذ أن تم القبض علينا صباح ١٨ من شهر يونيو المنصرم ونحن نشهد مظاهرة كبرى ينظمها المختصون فى جهاز الأمن بالإثارة فى بعض الصحف مرة وبالإشاعات مرة أخرى وفى المحاكم أخيرا. وهذه المظاهرة والجلبة لا هدف لها سوى التهويل ومحاولة التأثير على الرأى العام والمحكمة بأن ثمة شخصيات خطيرة على الوطن تم القبض عليها وأن ثمة قضية كبرى تتعلق بأمن البلاد. ولكن المظاهرات المصطنعة والضوضاء الجوفاء لا يمكن أن تلهى شخصا عاقلا ولا يمكن أن تصرف فكرة عن الحق – فالحق ابلج والباطل لجلج – أننى فيما سأتلو سأحاول ببساطة أن أكشف الحقائق فى يسر، هدفى فى ذلك أن تصل المحكمة والرأى العام للحق بأبسط الطرق وأسهلها. لماذا كل هذه الضجة؟ أن فى قمة جهاز الأمن شخصيات يهمها الدعاية لنفسها بكل الطرق حتى توهم الناس بجدارتها وكفاءتها وهذه شخصيات حاولت عبثا أن تنال من حريتى الشخصية فترة سبعة أشهر ولكن رغم ذكائها المزعوم ورغم ما وضع تحت أيديهم من اعتمادات ٦٠/٥٩ إلى ما يقارب ٥٤% بالنسبة للعام المالى المنصرم فشلت فيما تريد وباعدت بينها

وبين هدفها فى اعتقالى ولهذا تجرعت كاس الفشل مريرا وأصبحت تعانى من العقدة النفسية تجاهي، ولهذا كانت المظاهرة والجلبة، وكان القبض على وعلى زميلى **الوسيلة** هو غاية الاستقرار وخلاص التجارب التى نالوها بين شرطة اسكوتلنديارد وألمانيا الغربية.

أن هذه القضية المعروضة أمامكم يا سعادة القاضى تمس مباشرة نشاطى السياسى ونشاط زملائي، ذلك الرهط من الرجال الشرفاء الذى قام على أكتافهم حزب الجبهة المعادية للاستعمار. وفى جلاء جوانب هذا النشاط وأركانه المختلفة ما هو ضرورى لسير العدالة وإعلاء كلمة الحق أننى أعيذ نفسى من الدعاية لشخصى فما إلى هذا أهدف وما كنت إلى ذلك أقصد فى يوم من الأيام، ولكن سير القضية يجبرنى على التكلم عن نفسى جريا وراء الحقيقة.

أننى أنتمى لذلك الجيل من الشباب الذى تفتحت أذهانه وتنبهت آذانه على صوت الوطنية السودانية فى الأربعينات فى تلك الفترة ونحن فى ميعه الصبا نتلقى العلم فى المدارس الثانوية أتسع نطاق تفكيرنا من محيط جدران قاعة الدرس إلى نطاق وطننا بأسره.

فعرفنا أن الجو الخانق الذى كنا نحس به فـــى المدرســـة والقحـــط الثقافى الذى نعيشه والتعليم المتيسر الذى نتلقاه والتزييف الفـــاضح لتاريخ بلادنا الذى كنا نطالعه فى الكتب الإنجليزية، كل هذه لم تكن سوى حلقة واحدة من سلسلة يشد بعضها بعـــض ويحكـــم وثاقـــها المستعمر الدخيل فيكبل شعبنا ويذل بها وطنا بأجمعه. وعندما يصل الشباب إلى هذه الحقيقة البسيطة فـــى معناهـــا المروعـــة للخيـــال والعاطفة والعقل فلن تحده الحدود أو تقف دونه السدود - فانطلقنـــا نكون الجمعيات ونجاوب مع الحركة الوطنية الناشـــئة. وســـاهمت بجهدى المتواضع فى بناء حركة الطلبة التى كان لها الفضـــل الأول فى تنظيم أول مظاهرة ضد المستعمرين أول عام ١٩٤٦م، وكـــانت تلك المظاهرة الأولى من نوعها بعد الضربة العنيفة التى وجهـــــها الاستعمار لشعبنا عام ١٩٢٤م، والشرارة التـــى ألـــهبت الحمـــاس الوطنى فانتظمت البلاد على أثرها حركة وطنية مستمرة ضد بقـــاء الاستعمار حتى نالت البلاد استقلالها فى مطلع ١٩٥٦م.

أن النشاط الوطنى الذى قام به شباب الطلبة فى مطلـــــع عـــام ١٩٤٦م كانت لابد أن يكسب كل المشتركين فيه تجارب جديدة لأنه احتكاك مباشر بالحياة العملية - وقد كنت ضمن مئات الطلبة الذيـــن يراقبون فى الصفوف الخلفية المحاولات المستميتة المخلصة التـــى

بذلها قادة الطلبة من أجل توحيد الأحزاب واتفاق كلمتها لتشكل وفدا للسودان يواجه المفاوضات الإنجليزية المصرية فى القاهرة فى تلك الفترة من عام ١٩٦م – وقد كانت التجربة مذهلة ومدهشة لعقولنا المتفتحة - علمنا والأسف يغمر أفئدتنا، أن بين الأحزاب السودانية من لا هم لهم غير خدمة المستعمرين فقد تجردوا من الغيرة الوطنية ونزعوا جذورهم من ثرى هذا الوطن وربطوا مصيرهم بالمستعمر الأجنبى واصبحوا أدوات له يسخرهم فى حرب بنى وطنه وفى عرقلة سير الحركة الوطنية، لقد تبينت لنا هذه الحقائق المريعة من سير المفاوضات التى كان يجريها قادة الطلبة مع الأحزاب الأخرى وإصرار ذلك النفر على وجوب النص فى وثيقة الأحزاب المشهورة على مبدأ التحالف مع بريطانيا إلى درجة التهديد بتكوين وفد آخر منفصل عن وفد الأحزاب الوطنية، لماذا هذا الإصرار؟ وأية مصلحة وطنية يخدم؟ أسئلة دارت برؤوسنا وبددت أفكارنا الخيالية واستقرت فى ضمائرنا نقلبها. إذا ليس كل من يشمله الوطن السودانى يعتبر وطنيا راغبا فى استقلال بلاده؟ أن هناك مصالح أخرى تدفع بأربابها للتنكر لمصلحة المجموعة؟ ما هى تلك المصالح؟ ومن ضمن مئات الطلبة قلبت هذه التساؤلات فى ذهنى فلم أجد تفسيرا معقولا قائما على المنطق والحقائق وكيف نجد

التفسير وكل مفهومنا للحركة الوطنية لم يتعد اعتباره حربا بين السودانيين والمغتصبين؟ مثل تلك النظرية تفشل فى تفسير ما يشذ على قاعدتها وما أكثر الشذوذ. وفى هذه النقطة الحرجة وقفت كثيرا وفكرت كثيرا فرجعت أقرأ كل ما وقعت عليه يدى من تاريخ النضال الوطنى فى الهند ومصر وأوروبا فما وجدت ما أصبو أليه من حل - كم كنت سعيدا حينما عثرت على كتاب عند صديق، كتاب بسيط فى طباعة متواضعة اسمه [المشكلة الوطنية ومشكلة المستعمرات] بقلم جوزيف ستألين. هنا لمحت الحل ووصلت إلى الرد الحاسم لتساؤلى! فعرفت الاستعمار وأنه لا يعنى فقط احتلال الجنود لبلادنا بل يعنى سيطرة رأس المال الأجنبى على مقدرات وطننا وأن هذا الأخطبوط من شأنه أن يحيط نفسه بطبقات من داخل البلاد بواسطة بنوكه وشركاته، طبقات تشمل الإقطاعيين وكبار الرأسماليين، وأن هذه المصالح هى التى تحرك تلك الطبقات وتقتلع جذورها من أرض الوطن. وكانت تلك الأفكار النيرة فاتحة لنافذة كبرى نطل بها على العالم ونتبصر بها طريق حركتنا الوطنية وقد تداول هذا الكتاب وقتها عشرات من الطلبة كل يتطلع لإيجاد حل لمشاكل الحركة الوطنية السودانية ويلتمس فيه أنجح الطرق لمعرفة المزيد من النظرية الماركسية اللينية التى اتخذها

منهجا لحياتى محاولا تطبيقها على ظروف بلادنا وفق تقاليدنا السودانية وما تتطلبه مصالح شعبنا الحقيقية - أن تاريخ حياتى يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أننى لم أطرق باب الماركسية جريا وراء نفع شخصى أو غرض زائل بل وراء البحث المخلص الأمين لوسائل تحرير الوطن من نير المستعمرين والمساهمة فى بناء جمهورية سودانية مستقلة حقا ينعم فيها أبناء الشعب بخيرات بلادهم. واليوم عندما أنظر من وراء هذه السنوات الطويلة أشعر بالسعادة والفخر بفكر تقبلته مختارا وبمنهج سلكته عن اقتناع تام وارتاح لمجرد التفكير **فى أننى لو لم أكن شيوعيا ماذا كنت أصبح؟.**

أننى لم أصل إلى النظرية الماركسية اللينية عبر طريق النضال السياسى وحسب رغم أن هذا وحده يكفى، ولكنى توصلت إليها فى بحثى وراء الثقافة التى تنسق عقل الإنسان ووجدانه وتباعد بينه وبين التناقضات العقلية التى عاشها جيلنا ومازالت تعيشها الأغلبية من المثقفين السودانيين - مع نشوء الحركة الوطنية الحديثة فى بلادنا وخاصة فى الأربعينات سارت إلى جنبها حركة ثقافية ترجع أصولها إلى ما قبل الحركة الوطنية بكثير ولكنها توهجت ولمعت

مسايرة الحركة الوطنية، وكانت يتجاذب تلك الحركـــة تيــاران أو مدرستان أحدهما تنادى بالرجوع إلى المـــاضى العربـــى وتراثـــه والتقيد به - كانت المدرسة الأولى تربط نفسها بالماضى، وتنظـــر إلى الوراء ولا ترى المستقبل تحافظ ولا تتقدم، تتحسر علــــى مـــا مضى ولا ترى البشائر المرتقبة ولا تفكر فيها. وكانت المدرســـة الثانية يبهرها تقدم أوربا الغربية وتشعر بضآلة شرقنا إزاءها فشدت نفسها نحو الغرب فعاشت بجســدها فـــى أرض الوطـــن وبعقلـــها وعواطفها فى الغرب، وبين هاتين المدرستين عاش جيلنا فى حيرة ردحا من الزمن إلا من أنحاز منه إلى هذه المدرسة أو تلك فأنعكس ذلك فى تحيزها لمدرستى العقاد والرافعـــــى وطفحـــت الصحـــف المدرسية بما كتبه أولئك المفكرين، واندفعت ضمن من أندفع أبحث عن مضمون فكرى أعيشه ومنهج ثقافى مكتمل منسق بشبع جوانح الفكر ويشفى جموح العواطف الخيرة - وقد سلكت فى هذا الســـبيل طريقا صعبا وركبت مركبا شاقا اتعب... أبحث... أقلب... وأفكـــر فرجعت إلى الماضى العربى أخذ منه ما تيسر فوجدت فيه تراثـــــا مجيدا ولكنى لم أصل بواسطته وحده إلى ما يصبو إليه، ولم أجــــد عنده الحل لمشاكلنا بعد الحرب الثانية وخلالها وما نجم عنها مــــن أحداث فكرية وسياسية - فالشرق العربى قد وقف عــــن التطـــور

أحقابا من الزمن تبدلت فيها معالم كوكبنا وشارفت فيـــه البشـــرية مشارق جديدة وأندفع الإنسان خطوات واسعة فى سبيل التحرر من الحاجة فى سبيل السيطرة على قوانين الطبيعة - فـــالرجوع إلـــى الماضى وحده يعنى دفن الرؤوس فى الرمال والتخلف وهو أمـر لا يمكن حدوثه فى عالم اليوم، وثقافة الأمـــس وحدهـــا لـــن تصلـــح للمجتمع الحديث ولن تحل مشاكل الرجل الحديث الروحية والماديـة - وطفت أبحث ضمن الباحثين فى ثروة الغرب وخاصة ما أتصـــل منها بالثقافة الإنجليزية التى أصبحت فى متنـــاول أيدينـــا بفضـــل السياسة التعليمية المرسومة والأساتذة الإنجليز - كان الكثير مـــن أبناء جيلنا يذهبون مذاهب شتى من الأخـــذ بالثقافـــة الإنجليزيـــة ويتطلعون من خلالها إلى ثقافة أوروبا خاصة ما وصل منها إلـــى الثورة الفرنسية وكتابه السابقين واللاحقين فتداولت الأيدى مؤلفـــات روسو وفولتير ومونتيسيكو - لقد بهر الكثيرين منا تراث الغـــرب أبان الثورة الصناعية فى القصة والشعر والتـــاريخ ووجدنـــا فيـــه الكثير من معانى الحرية التى كنا نصبو إليها، وقيم الجمال التى كنا نتعطش للارتواء منها. وقد وقف البحث ببعضنا عند تلك النقطـــة فأثروا التعميم وخلعوا على الثقافة الإنجليزية كل صفات التبجيـــل وتوهموا فيها حلا لمشاكل البلاد ولكوينهم الفردى روحيا وفكريـــا.

ومن هؤلاء الكثير اليوم من أبناء جيلنا يضربون فى دروب الحياة المختلفة يعشون بفكرهم خارج نطاق السودان وفى حدود بعيدة وتتكشف كل يوم تحت أقدامهم هوة واسعة من التناقضات بين الحياة حولهم وبين الأبراج العاجية التى وضعوا فيها عقولهم وعواطفهم. ولكن أيضا كانت هنالك جماعة من ذلك الرهط وأنا من بينهم لا تقف عند ذلك الحد يدفعها فى ذلك كونها لم تطرق أبواب المعرفة والبحث من أجل تكامل شخصى منفرد بل من أجل تكامل شخصى مرتبط بالجماعة وناجح فى حل المشاكل التى كانت ومازالت تلاقيها بلادنا من فقر مادى وقحط ثقافى واهتزاز فى القيم الروحية – وقد راع تلك الجماعة التباين والتناقض الكامنان فى الثقافة الإنجليزية التى وصلت إلى أيدينا. فالحديث عن الجمال والحرية وهى أسمى ما تهدف إليه الفنون والمعرفة يسايرها القهر والاستبعاد للشعوب ومن ضمنه شعبنا، والدفاع الجاد عن حرية الرأى يطبقه حملة الثقافة الإنجليزية نظاما قائما على مصادرة كل رأى معارض ونابعا من إرادة هى أبعد ما تكون عن إرادة الشعوب. والثقافة ألحقه هى سلوك منهج قبل أن تكون معلومات تكدس فى الرؤوس ولا خير فى معرفة لا يلزمها التطبيق – فإذا كان أحفاد (الماجناشارتا) وورثة الحرية والانطلاقة والجمال من

عهد شكسبير انطلقوا يشوهون قيم الحرية لا الجمال في بقاع الأرض في أفريقيا وأسيا والشرق العربي فلابد أن يكون هنلك داء عضال أصابهم وثقافتهم في الصميم. فالجمال لا يورث القبح، والحرية لا تورث العبودية والانطلاق لا يخلف القيد. وعند تلك النقطة وقف الكثير منا يفكر ويضرب في متاهة الفكر فالبعض آثر السير إلى نهاية الشوط فوصل إلى قاع الغموض والتصوف الذي أصاب الثقافة البريطانية في العهود الحديثة والبعض الأخر وقف لاهثا في عالم الشك حتى ظهرت له مشارق النظرية الماركسية فأشبعت تعطشه واتخذها منهجا في حياته وقضت على التناقض بين القديم والحديث وعرف من خلالها أسرار التناقض في ثقافة الغرب. فعرفت وغيرى من خلال هذه النظرة الإنسانية الحديثة ألا فائدة لفكر لا يتنقل بالبشر إلى الأمام ماديا وروحيا، وأن قيم الحرية والجمال.لا تقتصر على المتعة الذهنية التي يصيبها الفرد بل لابد أن تظل المجتمع بأسره بأجنحتها، وأن الحديث عن العدل والمساواة والإخاء لا يبحث عنه الإنسان في الماضي، فالعالم يسير إلى الأمام، بل يبحث عنه المرء في حاضره ومستقبله وهو ممكن التحقيق على وجه كوكبنا الأرضي لا في جمهورية أفلاطون والأقاصيص المثالية، وأن الطريق لتحقيق قيم الجمال الاجتماعية

فى ذروتها المتلخصة فى العدل الاجتماعى طريق شـــائك ولكــن ممكن، وأن البشرية التى بذلت الكثير فـــى ســبيل ذلــك الـــهدف، وأنتكس الأمور فتحولت أمانى شعب فرنسا الثائر إلى دكتاتوريـــة بونابرت، وتراجعت حركة الشعب البريطانى إلى إمبراطورية تقهر ولا تنصف تذل ولا تكرم، وأنقلب حداء الثوار الأمريكان وملاحــم توماس بين إلى احتكار بشع واستعمار أرذل – أن هـــذه البشـــرية ستصل إلى ما تهفو إليه، وقد وصلته بـــالفعل فـــى ظـــل النظـــام الاشتراكى فى أراضى بعيدة قريبة للأفئدة. وهكـــذا طرقـــت مـــع أخوانى باب الاشتراكية بعد تعب وجهد وليال من الشك وصـــراع بين مدرستين فكريتين، فوجـــدت فيـــها راحـــة (طـــاب مراحـــها والمشرب) وبلسما شافيا للتناقضات التى عشنا فيها وعاملا حاســما للتكامل الشخصى والارتواء العاطفى والفكرى ورابطة شديدة بيـــن نمو الفرد والمجموعة، تلك المشكلة التى وقف دونها الكثير حيارى وسلكوا فيه دروبا وعرة دامية – لقـــد رأيـــت ومـــازلت أرى أن الإنسان حينما يتوصل إلى سر الكلمة المكتوبة يضع أقدامـــه فـــى طريق شاق تحفه المسئوليات الاجتماعية، وخاصة فى بلـــد مثـــل السودان تتفشى فيه الأمية وأن الأمانة التى يتحملها المتعلـــم تنـــوء تحتها الجبال، فعليه أن يعد نفسه لتحملها ويسعى ويجاهد نفسه لكى

يصبح صالحا لاحتمال المسئولية الاجتماعية إما مواطنيه فهو رائد لا يكذب أهله. فالمتعلم الذى يضع نفسه فى قفص عليه قضبان من المصالح الشخصية والتعصب الفردى عضو مشلول يتهرب من المسئولية ويعض اليد التى طالما أسدت إليه الجميل...

ونحن المتعلمين فى السودان ما كان واحدا منا يحلم بدخول المدارس والوصول إلى مستوى الجامعة لو كان يعتمد على مصادر عائلته المادية فمعظمنا نشأ نشأة متواضعة فيها الكثير من الحرمان وشظف العيش، فما وصلنا إليه إلا بأموال الشعب ونتاج كدحه. ومن هنا تنشأ المسئولية الاجتماعية التى دفعتنى والكثير من أخوانى إلى البحث والتنقيب لإعداد أنفسنا. وهل كان لنا أن نصل لغير الاشتراكية والماركسية فى أعداد أنفسنا لرد الجميل لشعبنا؟ لقد وصلنا إلى الماركسية واتخذناها منهاجا لنا، لا بدافع غريب أو بوحى أجنبى كما يحاول البعض التدليس والكذب، ولكن بدافع من مسئوليتنا إزاء وطننا، ذلك الدافع الذى تمتد جذوره فى أعماق تربة بلادنا الغبراء.

هذه قصة وصولى إلى المنهج المادى الجدلى – لب النظرية الماركسية – وهى قصة بسيطة تعكس النزوع نحو الحرية وخدمة

وطنى تدمغ بالكذب كل تهويل وقصص خيالية مريضة يبدعها بعض المسئولين فى أجهزة الأمن قصد التضليل والتشويه. وهى أيضا قصه جيل من الرجال والشباب وذوى الفكر الاشتراكى الماركسى الذين يعملون اليوم فى إخلاص وتفان من أجل بناء السودان وحماية استقلاله، وبعثة فى طريق الاشتراكية فى ميادين الحياة المختلفة. أما العناوين المثيرة التى تبرز على أعمدة بعض الصحف تلبية لإشارة كبار المسئولين فى أجهزة الأمن حول [جذور الشيوعية والقضية الكبرى التى تكشف تسلل الشيوعية للسودان] فلا تصلح لأى شئ المهم إلا للدعاية لأفلام الجريمة الأمريكية ورعاة البقر. وفى سبيل إعداد نفسى لخدمة موطنى والقيام بما يفرضه القلم على كل متعلم سودانى من مسئولية شددت الرحال إلى مصر الشقيقة سنة ١٩٤٦م، بحنا وراء جو أفضل وأكثر تحررا، للتعلم، ولكى أنال قسطا من تجارب ذلك الشعب المناضل فى سبيل حريته واستقلاله. ولم أكن أنا وإخوانى بناكرى الجميل لشعب مصر ولا ناسين التزاماتنا إزاء شعبنا - فهناك ونحن بعيدون عن أرض الوطن بذلنا جهدنا من أجل استقلال السودان ومن أجل حريته وحرية مصر - وتشهد السنوات التى قضاها أبناء جيلنا النازحون للقاهرة على النشاط الدائب المخلص الذى قمنا به من أجل توضيح

قضية واستقلال السودان ومن أجل إزالة الحكم المالكى الرجعى فى القاهرة – ذلك الحكم الذى يعوق تطور قضية السودان ويأمل فى هضم حقوقنا وتحقيق وحدة وادى النيل تحت التاج والمستعمرين، لقد ساهمت مع أخوانى فى القاهرة بشرح قضية شعب السودان أمام الهيئات الشعبية المصرية وأنشأنا اتحادا للطلبة السودانيين وقف أعضاؤه فى رجولة واستقامة ضد كل أنواع الاضطهاد والملاحقة التى فرضه البوليس المصرى، ويكفى دليلا على ذلك السنوات العديدة التى قضاها أبناء السودان فى سجون مصر، واستشهاد الطالب السودانى الشيوعى صلاح بشرى فى السجن متهما بمحاربة الملكية. لقد استطاع أخوانى فى القاهرة وأنا من بينهم أن يعلنوا لأول مرة شعار حق تقرير المصير لشعب السودان، ودافعوا عن هذا الحق المقدس وسط موجة الاضطهاد، وصبروا وصابروا حتى أصبح ذلك الاتجاه سياسة مصر الرسمية فى اتفاقية السودان.

أن تاريخى وإخوانى من الطلبة السودانيين ذوى الفكر الشيوعى الماركسى طيلة الفترة التى بقيناها فى القاهرة تؤكد جهادنا وتضحياتنا بكل شئ فى سبيل استقلال السودان، وفى سبيل دعم أواصر الصداقة بين الشعبين الشقيقين المصرى والسودانى. والفضل الأول فى هذا يرجع إلى منهجنا الماركسى فى الحياة،

وعلى فهمنا لقضية التحرر الوطنى على ضوئه. وفى يوم من الأيام عندما يزول التضليل والتزييف ويدون المؤرخ المخلص لقضية استقلال السودان بأحرف من نور جهاد الطلبة السودانيين فى القاهرة وفى مقدمتهم الطلبة **ذوو التفكير الشيوعى** سيذكر جميع من شرد منهم من دور العلم لدفاعه عن استقلال السودان وحرية شعب مصر، سيذكر العرق والتعب والتضحيات التى بذلتها تلك العصبة من صحتهم وشبابهم فى سبيل السودان.........

لقد اكتسبت وأخوانى العديد من التجارب بالتصاقنا بنضال شعب مصر وعمال مصر المكافحين الاشتراكيين هناك، واقر فى اعتزاز أننى لم أبخل فى يوم من الأيام بتلك التجارب على وطنى، بل أننى انتهزت أول فرصة للعطلة المدرسية للحضور إلى السودان وتقديم خبرتى ومعرفتى المتواضعة لبنى وطنى. أننى أذكر بالفخر أن على رأس تلك الأعمال التى أسهمت فيها مساعدة الطبقة العاملة السودانية فى بناء منظماتها عام ١٩٤٧م فقد عشت فترة فى مدينة عطبرة خلال ذلك العام وعاصرت تكوين أول منظمة نقابية سودانية هى [هيئة شئون عمال السكة الحديد] وكانت تلك بحق فترة عزيزة فى حياتى لن أنساها فقد عرفت فيه عن كثب استقامة

وشرف ورجولة عمال السودان، ولمست بيدى حيوية الطبقة العاملة السودانية، وقوتا وأنها الطبقة الوحيدة التى تحمل بين يديها مستقبل السودان الزاهر، استقلال معزز واشتراكية سمحة. وعرفت كل هذه القيم الوضاءة والمعانى السامية فى قائد كبير هو - **الشفيع أحمد الشيخ** الذى بنى لعمال السودان مجدا مشرقا سيظل كذلك رغم السحب - فالسحاب أمره لزوال والشمس باقية ما بقيت الكواكب.
لقد أثمر الجهد الذى بذل عام ١٩٤٧م وشيد عمالِ السودان نقاباتهم بالتضحية والبذل، وكل مؤرخ منصف لابد أن يذكر أن أساس الديمقراطية الحديثة فى بلادنا ارتكز ويرتكز على حيوية النقابات العمالية السودانية فى سبيل الاستقلال مؤكد أن عمال السودان أكثر الطبقات بذلا وتضحية فى سبيل الاستقلال، إذ دفعوا ضريبته سجنا وحرمانا من الرزق ودما مراقا يمثله العامل **الشهيد قرشى الطيب** الذى صرعته قنابل المستعمرين فى عطبرة عام ١٩٤٨م. أن قادة النقابات العمالية الذين خاضوا نضالا طويلا شاقا منذ علم ١٩٤٧م وتكونت شخصياتهم فى التنظيم النقابى واكتسبوا تدريبا فى النظم الديمقراطية، ساهموا بنصيب وافر فى الدفاع عن استقلال السودان فى الداخل وعلى نطاق عالمى، حيث اكتسبوا لبلادنا أصدقاء أقوياء فى مختلف البلدان - فى العالم الاشتراكى وبلدان أوروبا الغربية،

فكانوا بذلك خير سفراء للسودان. أليس فخرا للسودان أن يحتل منصب نائب الرئيس لأكبر منظمة عمالية عالمية – اتحاد النقابات العالمى، الذى يسهم بقدر وافر فى استقرار السلام العالمى – أن يحتل هذا المنصب **السيد الشفيع أحمد الشيخ** عامل السكة الحديد السودانى الذى كان ضمن الطليعة الأولى النقابية عام ١٩٤٧م.

هذا هو نشاطى فى المرحلة التى قضيتها فى الدراسة والتى اتصلت حياتى فيها لغير انفصام بالفكر الاشتراكى الماركسى وهى مرتبطة بإشراق الثقافة الماركسية فى بلادنا. هذه جذور الفكر الشيوعى فى بلادنا قامت فى أرض طاهرة وارتوت بالإخلاص والتضحية والوطنية، فكر ظاهر ودعوة واضحة لا يأتيها الغموض من بين يديها ولا من خلفها. تحقيقا للعدالة فأن المحكمة يهمه أن تعرف نشاطى منذ أن استقرت بى الأحوال فى السودان دون انقطاع منذ آخر عام ١٩٤٨م، إذ أن هذه الفترة نالت الاهتمام من جانب الاتهام فى القضية المعروضة أمامكم – وقد لاقيت فيها الكثير من ملاحقات البوليس ومطاردته خلال عهد الاستعمار وفى فترات ما بعد الاستقلال، وخاصة فى عهدى السيد عبد الله خليل والوزارة الراهنة لقد ألقى على السيد المحقق فى هذه القضية سؤالا

أظنه فيما أعتقد – أمل أن أكون صائبا – محرجا: **كيف تعيش كل هذه المدة ولا عمل لك؟** وحق له أن يدهش قليلا فقد تساءلت أنا نفسي بعد عودتى من الدراسة فى القاهرة ماذا أعمل؟ **ولم يطل بى التفكير فقررت دون تردد أن أكرس حياتى لما أعددت له نفسى مجاهدا فى سبيل استقلال الوطن ومن أجل الاشتراكية.** أليست هذه القضية تستحق التفرغ والتكريس للجهد، وأن يهب المرء حياته من أجلها؟ كم هو رائع ما قاله الكاتب السوفيتى نيكولاى استروفسكى فى هذا الصدد [أن أثمن ما يمتلك الإنسان حياته وهى تعطى له مرة واحدة لا عودة لها، فعليه أن يعيشها حتى لا يشعر بالندم والمرارة وهو مسجى على فراش الموت، بل عليه أن يعيشها حتى يقول: **لقد قضيت حياتى فى سبيل أنبل وأعظم قضية قضية تحرير البشرية]......**

واليوم، ورغم أننى مازلت حيا فأننى أقول عندما أرجع بالنظر عبر السنين، أننى قضيت تلك الفترة فى سبيل قضية نبيلة هى قضية استقلال السودان وسيره فى طريق التطور الاشتراكى وفى السبيل لم أنل مغنما شخصيا من الاستقلال، بل أننى أعيش كما يعيش بسطاء الناس فى هذه البلاد، ولا أشعر بالندم على الجهد

الذى قمت به والتضحيات التى بذلتها فى سبيل استقلال السودان ورغم أن الذين تعايشوا واستفادوا من ذلك الاستقلال هم بعينهم الذين كانوا يسخرون منا عندما كنا نخرج فى المظاهرات والحركات الشعبية ضد المستعمرين. هم بعينهم الذين كانوا يلقون علينا القبض خضوعا لرؤسائهم المستعمرين، ومازالوا يقومون بنفس الدور فى عهد الاستقلال. لست بنادم لأننى أعرف أن الأيام القريبة ستطهر البلاد وأجهزة الدولة المختلفة من كل الذين حاربوا الحركة الوطنية من قبل وانحازوا إلى جانب المستعمرين ضد بنى وطنهم.

لقد سلكت منذ أول يوم رجعت فيه بلادى طريق الشرح والإقناع للدعوى للمبادئ الاشتراكية ولم يثبت على ولن يثبت إننى سلكت طريق الإرهاب أو تسببت فى إراقة دماء المواطنين، كم أننى لم أسلك السبيل الذى سلكه غيرى فى الرشوة والأغراء والإفساد، فمبادئ الطاهرة تتنافى مع العمل الإجرامى، وتهدف إلى بناء سودان قوى حر، والإفساد لا ينتج عنه غير الفساد، ومن يزرع الشوك لن يجنى منه وردا... لقد دعوت إلى رأيى بوضوح **بقلمى ومجهوداتى**، وطلبت من الأسبوع الأول من وصولى لوطنى

التصديق لى بإصدار صحيفة، ولكن السلطان البريطانية رفضت هذا الطلب رغم أنها صدقت للكثير ممن هم أدهى منى ثقافة وشعورا بالمسئولية. ورغم هذا زاولت العمل الصحفى المستديم وذعوت بمقالات فى جريدة المؤتمر والجهاد والصراحة إلى رأيى شاكرا لأصحابها سعة صدورهم ووطنيتهم. لقد دافعت منذ أول يوم عن الحقوق الديمقراطية لكل الوطنيين وعن حرية الرأى وتبادل الثقافة - وقد استطعت أن أجلب كتبا شيوعية للسودان أعطيها لمن يشاء وأباحثه فى أمرها ليقتنع بمبادئى، وقد استطعت عام ١٩٥٣م بالرغم من مضايقات البوليس الخاضع للإنجليز أن أترجم وأطبع أول كتاب شيوعى فى مطبعة قانونية وأعرضه للسوق، وهو كتلب [فى علم اللغات] لمؤلفه جوزيف ستألين. لقد ساهمت بمجهودى ومناقشاتى ودراساتى فى إقناع الكثيرين من الشباب والرجال المناضلين بالنظرية الماركسية لا عن وعد أو وعيد، فما أملك لذلك وسيلة، وليس سبيلى، بل بالجدل والناقشة الحرة والاقتناع والإقناع - واليوم يعمل هؤلاء، فى كل ميادين الحياة فى السودان تربطنى بهم رابطة الفكر والثقافة ذات المنبع المشترك، ويؤدون للبلاد خدمات جليلة فى ميادين الإنتاج والحياة الاجتماعية والخدمات

الاجتماعية، يتفانون تضحية في خدمة الاستقلال، لم يفسد أحدهم ولم يهمل في عمله – تواضع جم واحترام عميق لشعب السودان.

أنني أعلم أن حرية المواطن في الدعوة لما يرى لاقت تعنتاً كثيراً من جانب المستعمرين، رغم أن هذا ضد كل القوانين والعرف، ولهذا اندمجت في الحركة الشعبية المطالبة بتوفر الحريات الديمقراطية وكان أول نتاج لتلك الحركة الشعبية دستور الحكم الذاتي، الذي طبق على بلادنا أول عام ١٩٥٤م ومنذ تلك الفترة وأنا أساهم جاهدا مع كل العاملين لتغير قوانين الاستعمار بالطرق الديمقراطية حتى أتمكن من تأليف حزب شيوعي دستوري. ولقد انتهزت الفرصة عندما صرح وزير خارجية السودان محمد أحمد محجوب في اليونان في منتصف عام ١٩٥٧م بأن سياسة حكومته تهدف للسماح للشيوعيين بمزاولة أي نشاط يريدونه في ظل الدستور فحررت خطابا إلى رئيس الوزراء عبد الله خليل أطلب منه أن يقرن قول السيد محجوب بالعمل وأن يتقدم للبرلمان بإلغاء المادة ٤ من قانون الجمعيات غير المشروعة فصمت عن لا أو نعم. أن هذه الواقعة تؤكد أنني سعيت واسعى لإيجاد وضع ديمقراطي حق يكفل حرية التنظيم الدستوري لكل مواطن أو جماعة من المواطنين.

أن تاريخ حركتنا الوطنية الحديثة يثبت أن المناضلين ذو الفكر الاشتراكى الماركسى ساهموا وبقسط وافر فى استقلال السودان ضربوا أمثلة محترمة فى التضحية ونكران الذات وخدمة الجماعة، لقد وقفوا فى مقدمة القوى التى ناهضت الجمعية التشريعية تلك المؤسسة التى صنعها الإنجليز والتى لو كان قدر لها أن تبقى وتنال التأييد لبقى السودان حتى يومنا هذا مستعمرة بريطانية. ولا أكون مغاليا إذا قلت أن هذا النفر من ذوى الفكر المتشابه كانوا أول من رفعوا راية المعارضة وسيروا أول مظاهرة فى أمد رمان صيف ١٩٤٨م وسجن عدد كبير منهم وقد كانت مظاهرة أمدرمان الشرارة التى اندلعت منها نيران مقاومة الجمعية التشريعية حتى تمت مقاطعتها بنجاح، وخرجت جثة لا روح فيها. وفى المقاومة الباسلة لتلك الجمعية استشهد الشيوعى **قرشى الطيب** فى عطبرة وشرد الكثيرون من ذوى الفكر الشيوعى وحرموا من أرزاقهم وعاشوا فى شظف من العيش وضيق بالغ وتحملوا كل ذلك فى استقامة وثبات. مما لاشك فيه أن نجاح حركة مقاومة الجمعية التشريعية أدى إلى قلب الخطط البريطانية فى السودان رأسا على عقب وكان العنصر الأول فى وصول البلاد إلى استقلالها. لقد ساهمت النظرية الماركسية فى توسيع نطاق الحركة الشعبية فى

البلاد، إذ أن الرجال الذين اتخذوها منهجا فى حياتهم نظموا الطبقة العاملة السودانية فى نقابات متينة كانت قاعدة ثابتة وصلبة للنضال من أجل الاستقلال، وطبعت الحركة الوطنية بطابع الجد منذ نشأتها عام ١٩٤٧م. بهذا أصبح المستعمرون يواجهون حركة قوية لا تقتصر على المثقفين وأقسام من سكان المدينة بل تمتد جذورها فتشمل طبقة تحرك قطاعا اقتصاديا فى الصناعة المواصلات. وتشهد السنوات المتعاقبة على الإضرابات العمالية فى الحقلين الاقتصادى والسياسى. مما كان له فضل كبير فى زعزعة الإدارة البريطانية وأضعافها. وقد دفع زعماء النقابات العمالية الثمن غاليا، سنوات عديدة قضوها فى السجون، لا تدانيها الفترات التى قضاها الزعماء الوطنيين الآخرين أن تلك الاستقامة والتضحية لم تكن نتاجا للدافع الوطنى التلقائى، بل كانت تستند إلى فهم علمى راسخ للنضال الوطنى، مبنى على النظرية الماركسية، أكثر النظريات قوة ورسوخا للنضال من أجل التحرر الوطنى. أن الشباب ذوى الفكر الاشتراكى الماركسى العاملين فى شتى ميادين الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لعبوا دورا مرموقا فى التفاف الشعب السودانى حول راية حق تقرير المصير والاستقلال. فالحركة السياسية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية انقسمت إلى معسكرين -

معسكر وطنى تنظمه الأحزاب الاتحادية ينادى بوحدة وادى النيـل، ومعسكر أخر يدعو للاستقلال. لقد كان المعسكر الأول يرمى إلـى أهداف وطنية ويحارب العدو الأول للشعب السودانى المتمثل فـى السيطرة البريطانية، ولكنه فى الوقت نفسه كان يـهول مـن قـوة المستعمرين ويرى ألا طريق لحرية السودان لا بالاندماج فى مصر على الدرجات المتفاوتة لذلك الاندماج. أما المعسكر الثـانى فقـط ربط نفسه بكل المشاريع البريطانية من مجلس استشارى إلى جمعية تشريعية، كل ذلك تحت ستار الاستقلال ولهذا صرف السـودانيين عن تلك الدعوة، وأصبحت كلمة الاستقلال ترتبط فى أذهان النـاس بذلك الاتجاه المتعاون مع الإدارة البريطانية. لقـد كـان لدعـوة المناضلين ذوى الفكر الماركسى بحق تقريـر المصـير للسـودان واستقلاله أثر حاسم فى سير الحياة السياسية فـى السـودان وفـى الاستقلال الذى يتكلم عنه الكثيرون اليوم. إذ أنه لأول مـرة تنشـأ دعوة استقلالية متحررة تناضل المستعمرين الإنجليز ولا تهادنـهم يشك أحد فى استقامة وإخلاص القائمين بأمرها، الكل يشاهد أعماله المتواصلة الجليلة ضد المستعمرين الإنجليز. بهذا الوضع ابتـدأت الجماهير الوطنية تفكر فى الاستقلال، وجرى تحول هائل فى كـل المعسكر الوطنى وخاصة عام ١٩٥٤م وشعرت أغلبية السـودانيين

أنه فى الإمكان التحرر من السيطرة الاستعمارية وبنـــاء ســودان مستقل يحميه أبناؤه. لست فى حاجة إلى أن أذكر كيف كان وضــع السودان اليوم لو أن البلاد استمرت فى حالة المعسكر الأول، وماذا كان المصير الذى تتردى فيه البلاد الطيبة فجدير بالذين يتكلمـــون اليوم عن استقلال السودان وكأنه ضيعة لهم، وجدير بالمتباكين على الاستقلال والمدعين الحدب عليه، أن يقفوا قليـــلا ويتحــرروا مــن أهوائهم وينظروا فى أعمال الرجال الذين عملوا فى صمت ونزاهة لهذا الاستقلال، والذين مازالوا يعملون لحمايته خــــارج الســجون والمعتقلات وفى داخلها.

أننا لم نسلك هذا الطريق الذى حول الاتجاه السياسى فى البــلاد نحو الاستقلال إلا على هدى النظرية الماركسية التى تؤكد حق كـل شعب فى تقرير مصيره، وأن تكوين دولة مستقلة لشعب مـــا هــو طريق تطوره، وأن الشعب الذى يحصل على استقلال قادر علـــى المحافظة عليه بإمكانياتـــه وبمســاندة قــوى التحــرر الوطنـــى والاشتراكية الماركسية من الرؤوس فعليه أن يدير الساعة للــوراء إلى عام ١٩٥٤م ليقضى على التحول الذى تم آنذاك نحو الاستقلال وليهدم الاستقلال نفسه، حتى لا نســتظل باســتقلال لعبــت فيــه

[النظريات الهدامة المخربة التابعة للكمنفورم] الـــدور الرئيســـى الفعال. ولكن استقلال السودان باق وسيقوى على مر الأيام حتـــى ولو كره من فى قلوبهم مرض حتى ولو كره أبطال محاربة الفكـــر الشيوعى وقد لعب الفكر الماركسى أيضا دوره البارز فى الوضـــع الاقتصادى لأقسام كبيرة من المواطنين ويكفى أن أذكر أن النقابـات العمالية وعلى رأسها قادة ماركسيون استطاعت أن تحصل علـــى تشريعات متعددة منها قانون المخدم والشخص المستخدم، والـــذى أدخل الكثير من التحسينات على حياة العمال، ولـــم يقتصـــر أثـــر الإضرابات العمالية المتواصلة والنشاط النقابى على ذلك بل اتســـع نطاق وادى إلى تحسين ملحوظ فى مســـتوى معيشـــة الموظفيـــن ورجال الخدمة المدنية على أساس مقررات ويكفيلد وميلز – واليوم ينعم الكثيرون بنتاج ملز الذى جاء نتيجة للنشاط المتزايد للنقابـــات، وامتداد آثرها لغير العمال الصناعيين، ولما سمع فى يوم من الأيـــام أن أحد الذين ظفرت بهم مقررات ملز رفض الطفرة لأن المبـــادئ الهدامة ساهمت بل فرضت مقررات ملز، حتى ولـــو كـــان ذلـــك الشخص من كبار حفظة الأمن الذين يحملون حملة صليبية علـــى تلك المبادئ.

هذه صورة لما قدمته النظرية الشيوعية لوطننا، وخدمة للاستقلال وفى سبيل حياة أحسن للمواطن السودانى. وأننى فخور لهذا السجل ومعتز بدورى الذى قمت به فى التبشير بهذه النظرية الإنسانية السامية – هذا السجل الذى يقدم اليوم للمحاكمة تحت قوانين وضعها الدخيل وأخرى أملاها الحقد والتشفى والتعجل وعدم التبصر بنتائج الأمور تبلورت هذه الأهداف والمعانى، التى كافحت وإخوانى من أجلها، فى حزب الجبهة المعادية للاستعمار، الذى ساهمت فى تأسيسه وتشرفت بمنصب الأمين العام له. كان ميلاد هذا الحزب نتيجة للحركة الواسعة التى انبثقت من صفوف الشعب يهدف لحرية التنظيم، وحق كل مواطن فى إبداء رأيه، وقد كسبت تلك الحركة جولات ضد المستعمرين وهزت من كيانهم. فنظمنا هذا الحزب خلال عام ١٩٥٣م بأهداف صريحة واضحة لا لبس فيها وببرنامج منشور ومعلوم وقد كان الحزب الوحيد آنذاك الذى نشر برنامجا مفصلا يشمل قضية الاستقلال والحياة الاقتصادية فى البلاد. ورغم حملات التخويف التى شنتها الإدارة البريطانية بقصد أبعاد الناس عن حزبنا إلا أننا استطعنا بمجهودنا وبوجود لجنة دولية للانتخابات أن نكسب حق التنظيم والبقاء وقد كانت الجبهة المعادية للاستعمار حزبا عماليا يهدف إلى خلق كيان مستقل للطبقة

العمالية السودانية ومفتوح العضوية لكل أبناء الشعب المؤمن بالاتجاهات الاشتراكية النابعة من صفوف العمال بغض النظر عن ظلال تلك الاتجاهات. المهم في العضو أن يكون ميمما وجهه شطر الطبقة العاملة بغض النظر عن الخلافات الأيدلوجية، فهذه أمرها يمكن حله طالما أمن الكل باستقلال الطبقة العاملة السودانية.

امتاز حزب الجبهة المعادية للاستعمار منذ إعلانه بوقوفه بثبات من أجل استقلال البلاد ومن أجل الديمقراطية وتحسين حياة الكادحين - لا أريد أن أعيد، ولكننى أذكر أن ذلك الحزب كان له الفضل الأول فى إجراء تحولات سياسية واسعة بين الوطنيين فى اتجاه الاستقلال وقد أيد سياسته وتعاون معه تعاونا مخلصا أغلبية نواب الحزب الحاكم وقتها الحزب الوطنى الاتحادى الذى أعلنت حكومته استقلال السودان. ولولا ذلك التعاون ولولا المجهود الذى قام به حزب الجبهة المعادية للاستعمار فى إقناع العديد من نواب الحزب الوطنى الاتحادى لما تم الاستقلال.

وفى سبيل الوصول إلى الاستقلال ثم المحافظة عليه نادى حزب الجبهة المعادية للاستعمار بقيام اتحاد وطنى يشمل كل المناضلين ضد الاستعمار ولو قدر لهذا العمل الجليل أن يتم بنجاح،

لكانت بلادنا تقفز اليوم قفزات هائلة فى طريق التطــور المســتقل وبناء اقتصاد معزز. وسيحكم التاريخ حكما قاسيا على كــل مــن ساهم فى تفويت الفرصة على شعب السودان لتوحيد صفه الوطنى، فقد دفعت البلاد ثمن الانقسام فى صفــوف الوطنييــن المنــاضلين للاستعمار غاليا - أضعاف للاستقلال واقتصاد خرب وطريق وعر شائك سارت فيه بلادنا - أن حزب الجبهة المعادية للاستعمار يحق له أن يقول أنه كان حزب الوحدة الوطنية - يوحد ولا يفرق ويجمع ولا يشتت، فليبحث الباحثون فى غيره عن دعاه الفتنة والانقسام وقد كان حزب الجبهة المعادية للاستعمار مستعدا للاشتراك فــى ذلــك الاتحاد الوطنى حتى ولول أصابه الغرم. وما مسلكنا فى الانتخــاب للبرلمان ببعيد عن الأذهان، وفى سبيل إنجاح الكثير من المرشحين الوطنيين بذلنا الجهد لا نرجو من وراء ذلك جــزاء ولا شــكورا، وهذا لعمرى هو النظام الحزبى النظيف ذو المبادئ السامية.

وقف حزب الجبهة منذ قيامه فى الصفوف الأولى دفاعا عــن الديمقراطية فى البلاد واستطاع بمجهود أعضائه المتواصل حمايــة مما كان يدبره المستعمرون والحكام الذين ساروا وراء خطواتــهم. ففى النصف الأخير من عام ١٩٥٣م والبلاد تقترب نحــو تطبيــق الحكم الذاتى، سنت الإدارة البريطانية ما أسـمته بقــانون النشــاط

الهدام ذلك القانون الذى كان يهدف لوضع اللبنة الأولى فى بناء دولة بوليسية تجرد الاستقلال من معناه وتجعله جثة لا روح فيها. وكان لنشاط حزب الجبهة الفضل الأول فى إلغاء ذلك القانون مما سمح للجماهير بالانطلاق خلال فترة الانتقال، وإجراء تحولات فى الجو السياسى لصالح الاستقلال. وفى مختلف المراحل سعت الجبهة لا علاء كلمة السلطة التشريعية فوق السلطة التنفيذية وقد ابتدأت تظهر نتائج هذا الاتجاه الديمقراطى السليم فى الأشهر القليلة التى سبقت الانقلاب العسكرى، ولو وصلت الأمور إلى نتائجها المنطقية لكانت البلاد تتمتع اليوم بنظام برلمانى أكثر ديمقراطية مما مضى أن نشاطنا الإيجابى البناء لم يقتصر على المساهمة فى إحراز الاستقلال، بل امتد وتزايد مداه بعد إعلان الاستقلال من أجل المحافظة على الاستقلال ودعم البلاد اقتصاديا. أن تاريخ الحياة السياسية فى بلادنا يشهد بأن حزبنا أول مؤسسة دعت لمناهضة الأحلاف العسكرية الاستعمارية منذ زن بعيد حتى أصبحت تلك الدعوة، التى تشكل حجراً أساسيا فى بناء الاستقلال، السياسة المحببة وسط الشعب، والتى لا يمكن لأى حاكم أن يتخطاها إلا إذا أراد أن يدق عنقه وينهى مستقبله السياسى. وكنا الحزب الوحيد الذى يمتلك برنامجا إيجابيا لما بعد الاستقلال يشمل

رأينا فى التطور السياسى المستقل وفى البعث الاقتصادى والاجتماعى والثقافى مما يؤكد أننا لم نكن حزبا يعيش على ماضيه أو يلعب على العواطف بالتهريج والدجل السياسى والدينى - لقد كنا نحس كحزب بالمسئوليات إزاء الشعب فمنذ إعلان الاستقلال وحتى يوم مصادرة دستور السودان المؤقت، ما مر أسبوع إلا وكان هناك اجتماع جماهيرى مفتوح يتحدث فيه قادة الجبهة وعن المشاكل التى تواجه البلاد فشرحنا للشعب أهمية الديمقراطية وتعديل القوانين التى ورثت فى عهد الاستعمار حتى يستطيع الشعب أن يؤثر فى مجرى الحياة السياسية فى البلاد، وشرحنا خطر المعونات الأمريكية التى تشد البلاد إلى المستعمرين وتجعل من الجمهورية السودانية كلبا لاهثا وراء سيده لا يطعمه إلا بمقدار ما يجعله يعانى الجوع مرة أخرى. باختصار بصرنا الشعب بكل الأخطار المحدقة باستقلاله وكرامته.

وبهذا النشاط المتزايد وخاصة خلال عام ١٩٥٨ وبالتعاون مع كل المواطنين المخلصين ابتدأت تحدث تحولات عميقة فى النظام البرلمانى، فلأول مرة ابتدأت كتلة من نواب الأحزاب الحاكمة تنظر لمصالح الشعب الناخب وتتحرر من نفوذ التعصب الحزبى. وهذا الأمر خطوة حاسمة فى دعم النظام الديمقراطى البرلمانى، ورفع

مستوى السلطة التشريعية فوق السلطة التنفيذية. ولو قدر للبرلمان أن يعقد جلساته، كما أعلن فى يوم ١٧ نوفمبر ١٩٥٨، لكنا شهدنا هزيمة الحكومة فى كل مشاريعها المتنافية مع الاستقلال والكرامة، وعلى رأسها المعونة الأمريكية وهدية الأسلحة البريطانية، وكنا شهدنا انبثاق حكومة لا تعتمد على تأييد حزب واحد بل على كتلة من النواب المتحدين، أن حزبنا قد ساهم بنصيبه فى هذا المضمار، وجاهد لإزالة التعصب الحزبى بين كتلة كبيرة من النواب ليصبح رائدهم خدمة الجمهور الناخب لا خدمة المتزعمين من بعض قادة الأحزاب والحزب الذى يناضل من أجل الديمقراطية هكذا حزب واضح مفهوم لدى الشعب لا يحتاج لإخفاء نفسه عن الجماهير الشعبية. وهل ينجح أى حزب يضع بينه وبين الشعب حائطا سميكا وستارا لا تنفذ إليه رقابة الشعب؟

أننى أود أن أذكر للمحكمة أن نشاط حزبنا وخاصة فى الشهرين اللذين سبقا الانقلاب العسكرى هو السبب الأول والرئيسى فى تلفيق هذه القضية ضدنا. لقد وصل إلى علمى من مصدر موثوق أن انقلابا ما سيتم فى البلاد حدث هذا فى الأسبوع الثالث من شهر أكتوبر وقد دعوت المكتب السياسى للجبهة للتشاور فى هذا الأمر واتخذنا قرارانا بما نراه فى مصلحة الاستقلال

والديمقراطية لقد انتهزت فرصة أول اجتماع سياسى فنوهت بما يدب للديمقراطية والاستقلال وهاجمت فى عنف ذلك التدبير وتساءلت لمصلحة من تتخذ تلك الخطوة وقد أشرفت البلاد على التخلص من حكومة السيد عبد الله خليل، ووضع حكومة أكثر ديمقراطية وتجاوبا مع أهداف الشعب الوطنية؟ وقد واصلت تلك الحملة بطريقة لا تعرضنا للقوانين فى أكثر من أربعة اجتماعات سياسية عامة ودفعنا جريدة الميدان فى هذا الاتجاه فأشارت باستمرار إلى ذلك التدبير ودمغته وطالبت الشعب أن يتيقظ ونظمت حملة من الاحتجاجات الشعبية توجه إلى رئيس الوزراء عندما قرر متحديا الرغبة الشعبية بتأجيل البرلمان من الانعقاد يوم ١٧ نوفمبر، وكنا نحن نلمح الخطة من وراء ذلك. فى الوقت نفسه قمنا باتصالات متعددة مع بعض الإخوان فى قيادة الحزب الوطنى الاتحادى وحزب الشعب الديمقراطى والكتلة الحرة فى حزب الأمة والجنوبيين ووضعت لهم ما وصل إلى علمنا وطلبت منهم أن نتعاون لإنقاذ النظام البرلمانى واستقلال البلاد - ولو أن أولئك الإخوان ما قلت مأخذ الجد وقاموا بما يفرضه الدفاع عن الاستقلال والديمقراطية لكنا نعيش اليوم فى ظروف تختلف عن الظروف الراهنة، وبالطبع لم يكن السادة الذين عملوا للانقلاب العسكرى

بغافلين عن آرائنا ونشاطنا ولهذا فرغم قرار حل الأحزاب صباح ١٧ نوفمبر ورغم تطبيق هذا القرار على كل الأحزاب بالطبع بما فى ذلك حزب الجبهة إلا أن إجراءات شاذة وقعت على أعضاء حزبنا وقادته دون بقية الأحزاب دون إبداء الأسباب ققفلت جريدة الميدان فى الوقت الذى سمح فيه لتلك الصحف الحزبية بمعاودة الصدور. وقبل أن يمضى أسبوع على الانقلاب دبرت حملة من الاعتقالات شملت رئيس الحزب وعديد من زعماء الجبهة وتوالت أخيرا الاعتقالات دون سبب مفهوم وأصبح أعضاء الجبهة يساقون إلى مركز البوليس لأخذ صور لهم وكأنهم من عتاة المجرمين. وهكذا أصبح معروفا منذ أول أسبوع أن الانقلاب العسكرى يناصب حزب الجبهة العداء فى الوقت الذى خصص فيه من أموال الشعب معاشا مترفا لرئيس الوزراء السابق عبد الله خليل الذى أعلن قبل يوم واحد من انقلاب، وقد سألته الصحف عن مقالة نشرتها جريدة النيويورك هيرالد تربيون حول اعتماده على الجيش بأن الذين يتحدثون عن احتمال انقلاب لا يعرفون أخلاق السودانيين التى تتعارض مع الانقلابات.

أذن ما هى الأسباب التى دفعت لتدبير حملة على حزبنا من بين جميع الأحزاب ولما يمضى أسبوع على الانقلاب؟ هل لأن

منشورات صدرت من الحزب الشيوعى والبوليس يتهمنا بـــها؟ أن منشورات الحزب الشيوعى التى يوزعها ويرسلها لكل المـــهتمين بالشئون السياسية لم تظهر إلا بعد أكثر من شهر على الانقــلاب - إلا يؤكد هذا أن النظام الراهن كان يضمر العداء لحزب الجبهة من بين جميع الأحزاب وأننا كنا سنقدم للمحكمة فور حدوث الانقــلاب لو تمكن البوليس من انتهاك حريتنا الشخصية؟

أما الحديث عن إدارة الحزب الشيوعى السودانى لعلى الاتــهام أن يثبت ذلك. ونحن نرى أن ذلك مجرد ستار لمحاكمتنا على رأينا المعروف سلفا فى النظام العسكرى الراهن. وأنا شخصيا لم أخــف رأى؟ فما من قوة على الأرض تستطيع إجبار رجل حر على ذلك. وقد وضحت رأيي كله فى انقلاب ١٧ نوفمبر لعضوين من المجلس الأعلى العسكرى خلال شهر أبريل المنصرم عندما جمعتنى بـــهما الظروف. لم أنافقهما كما يفعل الكثير لأن لى وازعا مـــن مبـــادئى ورجولتى ولم أجاملهما لأن المجاملة فى المبادئ ضعف ما بعـــده ضعف يا سعادة القاضى....... أننا نعاقب على رأينا المعروف فى الانقلاب قبل شهرين من حدوثه والذى جاهدنا كثيرا لمنعه لإيماننـــا بأنه مضر بقضيتى الاستقلال والديمقراطية - وأعاقب لأننـــى لـــم أخف رأيى فيما بعد حتى أمام عضوين فى المجلس الأعلى. أننـــى

لن أغير رأيى الشخصى فما خلق الرجل الذى يجبرنى على ذلــــك بعد، وسيتغير رأيى فقط حينما يطرأ تغيير جوهرى فـــــى سياســـة الحكم فى طريق الديمقراطية وإنهاء كافة القيود التــــى كبــل بـــها استقلال البلاد. كل هذه الحوادث التى وقعت على أعضاء حـــزب الجبهة زادتنى إيمانا بأن شيئا ما يدبر، وأن الاعتداءات المتكـــررة على حريات مواطنين عرفوا بدفاعهم المســـتميت عـــن اســـتقلال السودان ما هى إلا مقدمة لخطب جلل يصيب الاستقلال. وكما قـال شكسبير [ما الفترة التى تفصل بين التدبير والأقدام علـــى ارتكــاب الآثم إلا كليل من الشك مظلم أو كحلم مزعج مخيف].

هــل الدعــوة للنظريــة الماركســية مخالفــة لتقــاليد بلادنــا كمـا يدعــى البعــض:

فى هذه الأيام كثيرا ما تسمع بعبارة التقاليد السودانية يردده‍ــــا البعض دونما سبب، مظهرين العطف عليها وكأنها قطعة زجاجيـــة معرضة للكسر، أو كأنها وردة يجرح النسيم خدودها. والغريــب أن هذا التباكى والعطف المصطنع يصدر من أولئك الذين داسوا علـــى التقاليد السودانية وكأنهم يقتلون القتيل ويسيرون فى جنازته، مدعين بأن الفكر الشيوعى هو الذى قبل التقاليد السودانية. والغريب فــــى أمر هذا النفر أنهم صمتوا عندما كانت التقاليد السودانية تتعـــرض

لأكبر محنة، عندما كان الاحتلال البريطانى يدوس علـــى كرامــة وطنا، فيومه صمت هؤلاء صمت القبور وعاشوا ينفذون فى مسكنة كل توجيهات رؤسائهم الإنجليز وأوامرهم. أين الرجولة والشـــهامة التى هى على رأس التقاليد السودانية؟ لقد وقف الرجال ذوو الفكـــر الشيوعى والوطنيون فى رجولة وثبات ضد المحتلين الإنجليز لـــم ينكسوا الجباه ولم ينفذوا أمرا للمستعمرين. وهـــذه هـــى التقـــاليد السودانية التى حق لنا أن ندافع عنها.

أننا نفهم التقاليد السودانية متركزة فى حب الحرية والكرامــة والصراحة والشهامة، وفوق كل ذلك، فى قولة الحق. ونفـــهم أن هذه التقاليد انحدرت إلينا مـــن المجتمـــع القـــائم علـــى الملكيـــة الجماعية للقبيلة فتأصلت فى نفوسنا، ولكن هذه التقاليد عرضـــة للانهيار بالتدريج إذا تحطم أساسها واندفعت البـــلاد فـــى طريـــق الأنانية والفردية التى تعبر عن المجتمعات الرأسمالية والإقطاعية. والذين يقودون البلاد فى هذا الطريق هم المسئولون عن ضيـــاع القيم التى نعتز بها... وهذا ما جرى للكثيرين من البلـــدان التـــى سارت فى ذلك الطريق المؤلم الذى تحف به الأشـــواك مـــن كـــل

جانب. لا أظن عاقلا يستطيع اتهام الفكر الشيوعى بهذه التهمة فليفتش الباحثون عن غيرنا فى هذا السبيل.

أننا نقول الحق ونقول للأعور أنت أعور معبرين بذلك عن أسمى القيم السودانية والقيم البشرية. ولكن إذا أصبحت فى بلادنا دولة بوليسية فأن قوله الحق تصبح فى محنة وتضرب تقاليدنا السودانية فى الصميم. والإنسان لا يحتاج اليوم إلى مجهود كبير ليرى انصراف البعض عن الوقوف بجانب الحق. ففى الصحافة السودانية الكثير من الأمثلة لذلك بالرغم من احترامى لبعض الإخوان الصحفيين وتقديرى لظروفهم، أذكر أننى كنت أتابع فى صحيفة ما حملات عنيفة على المعونة الأمريكية أيام الوزارة السابقة ولكن بعد أيام من حدوث الانقلاب العسكرى وقبول العون الأمريكى قرأت للكاتب نفسه مقالة فيها عن الجانب الإنسانى فى المعونة الأمريكية، وقد تألمت كثيرا يومذاك لأننى أعرف جيدا خطر هذا الطريق على تقاليدنا وأعرف الألم الذى عاناه الأخ الكاتب وهو يكتب أمر ضد رأيه ومعتقداته.

لا افتخار إلا لمن لا يضـــام   مــدرك أم محـــارب لا ينام
واحتمال الأذى ورؤية جانبه   غــذاء تضوى به الأجســام
ذل من يغبط الذليل بعيــش   رب عيش أخف منه الحرام

هذا هو الخلق السودانى المنحدر ألينا من تراث العـــرب وقــد ضمته أرض أفريقيا وغذته أن الذين يحاربون الفكـــر الماركســى ويبنون جهاز دولة بوليسية ويتفننون فى التشريعات ضد [المبـــادئ الهدامة] كما يقولون، هم الذين يسمحون بأن تجرى تحت أعينــــهم وسمعهم عمليات هدم تقاليد السودان. فالانحلال الذى طغت موجاته فى المدن لا يجد علاجا بل هو فى نطاق القانون، وإحراز كتـــاب ماركسى مدعاة إلى الحجز فى السجن التحفظى والنقـــاط الصــور والبصمات، بينهما يلاقى من ينشرون المبادئ الخليعة الهدامة يتغنى بها الشباب فى الأماكن العامة مثل: [يا أســـتاذ بـــالقزاز – وفـــى الدروس ما فيش ممتاز، واللى يجينا نصيبه عكاز – ويا سحبســـوح جيناك] يلاقى هؤلاء حماية القانون لأنهم ضمن تقاليد السودان. **أية سخرية وأى قلب للأوضاع هذا؟!.**

لم يقف الفكر الماركسى فى السودان موقفا سلبيا إزاء الانحلال الذى بدأت موجاته تكتسح أوساط بعض الشباب نتيجـــة للثقافـــات

السينمائية الضارة وعدم عناية الدولة بهم والضائقة الاقتصادية التى تعانيها البلاد فعمد الشباب الذى انتهل من منابع الثقافة الماركسية إلى العمل دون ضجيج وساهم فى تأليف حركة شباب متسمة بالجد من التعليم ورياضة وفن رفيع، وبقيت حركة الشباب فى ازدهار وسجلت عضويتها ما يربو على عشرة آلاف منتسب فى فترة قصيرة. وكان من الممكن أن تؤتى ثمارها لأنها حركة اختيارية لا رسمية نابعة من الصفوف لا بموجب قرار رسمى،، لولا أن امتدت إليها أيدى محاربى المبادئ الهدامة فعطلوا نشاطها وفتحوا الطريق أمام حركات [يا أستاذ بالقزاز ويا سحسوح جيناك] أن الحاديين على تقاليد السودان يجب أن يفكروا بعمق فى موضوعهم. فكم من أمم تحدثت عن تقاليد ثم فقدت الكثير منها عندما سلكت طريقا خاطئا. **والاشتراكية التى ادعوا لها التعبير الحديث للتقاليد السودانية فما من وصفة نفخر بها إلا وقد ورثناها عبر التاريخ من عهود ملكية القبلية لوسائل الإنتاج حيث يعيش الناس فى عهد الجماعة يساعدون بعضهم البعض ويتعاطفون ولا يخافون على غدهم وتنصهر مصلحة الفرد فى المجموعة فلا أنانية ولا حسد بل حب للمجموعة وكرم فياض.** وإذا سارت بلادنا فى طريق التملك الرأسمالى الفردى نتيجة لكبت رغبة الشعب فأن جميع هذه المعانى

تتعرض للانهيار. وإذا أردنا مثلا حيا لذلك فلنقارن بين الوضع فى المدينة السودانية وبوادينا لنرى الفرق. نعم أن عجلة التاريخ تسير إلى الأمام ولكن طريق التقدم ليس هو النظام الرأسمالى الفردى بل هو الاشتراكية، التى تنتقل بمجتمعنا القبلى إلى نظام الملكية الجماعية الحديثة فتعم قيمنا ألحقه وتقاليدنا مع التقدم المادى الهائل. أن مشاهدتى فى أوروبا تؤكد ما أذهب إليه. ففى أوروبا الرأسمالية تقدم مادى وصناعى كبير ولكن الفردية تسيطر على كل شئ، والنجاح فى الحياة يعنى نجاح الفرد فى تحطيم إخوانه والصعود على أشلائهم، وأن يرمى غيره [ويرمى فى جهاد العيش غير مققل] كما أشار شوقى. أما أوروبا الاشتراكية فأنها أصابت نفس التقدم المادى وفاقت فى كير من النواحى ولكنها احتفظت بكل القيم الإنسانية الطيبة فى محبة الغير والكرم. وما ذلك إلا لأن الإنسان لا يخشى غده وطريق النجاح هو التكاتف مع المجموعة لا صراعها.

طريقان لا ثالث لهما لكل من يفكر فى مستقبل هذه البلاد والمحافظة على تقاليدنا الحسنة وتطور استقلالها طريق الرأسمالية وهو طريق لا منفذ له وطريق الاشتراكية الوضاء:

أمامك فأنظر أى نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم واعوج

وإذا كان السودانيون يمتازون باحترام أنفسهم والصراحة في الحق فقد انعكس هذا فى تمسكهم بنظام الشورى الذى هو لب الديمقراطية منذ عهود بعيدة تضرب فى أعماق التاريخ. فملوك كوش القدماء كانوا ينتخبهم زعماء القبائل وملوك الفونج وشيوخ العبدلاب كانوا يختارون بنفس الطريقة. والقبائل نفسها قبل الاحتلال الأجنبى التركى ثم الاحتلال البريطانى كانت تختار زعماءها ولا يفرضون عليها. فالذين يطعنون فى الديمقراطية اليوم يوجهون طعناتهم إلى تقاليد السودان التى يتباكون عليها. أن البعض يحاول أن يوهموا الناس أن الديمقراطية هى نظام غربى لا يصلح لنا. صحيح أن الديمقراطية البرلمانية نشأت فى الغرب مع الثورة الرأسمالية وانهيار العهد الإقطاعى، ولكننا كنا نمارس مضمون الديمقراطية القائم على الشورى قبل ذلك العهد بكثير جدا. أن النظام البرلمانى ليس بدعة لا تصلح إلا للغرب كما يقول البعض. وليس هو مرتبطا بمستوى تعليمى كما يزعم آخرون، فقد جرت فى بلادنا انتخابات كانت نسبة الناخبين فيها أعلى بكثير من بعض البلاد الأوربية وشعبنا رغم تفشى الأمية عرف مصالحة أكثر من

بعض الشعوب الأوربية المتعلمة التى تأتى بــــأحزاب المحـــافظين للحكم، إذ أن الشعب السودانى تمكن من انتخاب أغلبية وطنية فـــى برلمان ١٩٥٤م حققت الجلاء والاســـتقلال. أن إشـــراك الشـــعب اشتراكا واضحا فى حكم بلاده بوساطة ممثلين منتخبين أصبح حقـــا لكل الشعوب، أما الوصاية على شعب ما وحرمانه من ذلك الحـــق فدعوة منهارة مهما اتعب أصحابها الذهن فى تسميتها بأسماء براقة. وهذه سنة التطور التى لن يستثنى منها شعب السودان. **أننى أومـــن بكافة حقوق الشعب الديمقراطية وأرى أن نظام حكم الفرد فى بلـــد كالسودان متعدد القوميات ولما تتلاحم أجزاءه يهدد وحدة البـــلاد بخطر ماحق وخاصة فى مشكلة الجنوب التى تتطلب الديمقراطيـــة حلا لا القوة والتعسف والقـــرارات الإدارية الفرديـــة، تتطلـــب التراضى والتطور الحر للقوميات فى السودان فى ظل وطن واحـــد مشترك بين الكل اشتراكا على قدم المساواة.**

والنظام البرلمانى فى السودان لم يفشل فى بلادنا كمـــا يدعـــى البعض نفاقا وتهربا من قولة الحق، بل نجح إلى حدود بعيدة. فعـــن طريق البرلمان استطعنا أن نحقق أعز أمنيتين راودتـــا الوطنييـــن وهما الجلاء والاستقلال. صحيح أن الفساد كـــان موجـــودا فـــى

البرلمان ولكن هل كان النظام البرلمانى أصل الفساد؟ كلا، أن أصل الفساد كان يكمن فى تدخل المستعمرين فى شـــئون بلادنـــا، ومـــا الحوادث التى أوردتها الصحف وقتها حول الحفـــلات التـــى كـــان يقيمها رجالات السفارات الاستعمارية لبعض النواب والاتصـــالات المريبة التى كانوا يقومون بها لخدمة أغراضهم إلا صورة لذلـــك الفساد، ولكن النظام البرلمانى انتهى، فـــهل انتـــهى نشـــاط تلـــك السفارات؟ أنهم مازالوا يفعلون ما كانوا يفعلونه بـــالأمس بتغيـــير بسيط هو الانتقال ذلك إلى ذلك النشاط دائرة أخرى. والفساد أصلـــه طبقات غنية تسيطر على بعض الأحزاب وتفسد بعـــض النـــواب بالمال الحرام وتعميهم عن مصالح الناخبين وتحولهم إلـــى رجـــال (نعم) وإلى امعات. ولكن النظام البرلمانى انتهى فهل انتهت تلـــك الطبقات من الإقطاعيين والأثرياء؟ أنهم مازالوا يباشرون نشـــاطهم فسادا وتخريبا للذمم فى محيط آخر. وإذا كنا نريد محاربة الفســـاد فيجب اقتلاع الأصل واجتثاث جذوره. وسيبقى الفســـاد ويســـتفحل طالما بقيت طبقات الإقطاعيين واستمر نشاط المستعمرين وخبرائهم الفنيين فى بلادنا. أن البرلمان هو مرآة تعكس القبيح والجميل فـــى ظل الديمقراطية. والعقل يقول إذا لم تقبل نفسك رؤية القبيـــح فـــى

المرآة فأبعده عنها، ولا تكن كالطفل فتحطم المرآة وتصبح كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

وبالفعل كان النظام البرلماني يسير نحو الإصلاح والكمال، إذا أن النصف الأخير من عام ١٩٥٨م شهد تمرد النواب على قادة أحزابهم وخاصة فى موضع المعونة الأمريكية مقدرين مصلحة الناخب لا مصلحة حفنة من السياسيين المرتزقة، وبرزت كتلة كبيرة من نواب الجنوب يقف فى إصرار ضد الإغراء والمال الحرام. وبهذا ابتدأت السلطة التشريعية تعلو السلطة التنفيذية وكانت المصلحة الوطنية توجب هذا التقدم للأمام وقد ساهمنا نحن فى الجبهة المعادية للاستعمار مع كل الوطنيين وأنصار الديمقراطية فى ذلك الاتجاه. وفى ذات الوقت لا غيره وفى الساعات التى ابتدأ فيها النظام البرلمانى يسير فى طريق أقرب إلى الصواب حدث الانقلاب العسكرى صباح ١٧ نوفمبر.

أن الديمقراطية فى نظرى هى الضمان لمكافحة الفساد، فما من قوة تستطيع مراقبة الفساد واجتثاثه غير رقابة الشعب، ولا رقابة للشعب إلا إذا تمتع بحرياته كاملة وأصبحت له سلطة تغيير

الحاكمين. والفساد هو الفساد إذا جاء عن إغراء ووعد أو عن تهديد ووعيد.

وأخيرا أود أشير إلى [اتهام] سمعته كثيرا، لنشاطى الشخصى فى التبشير بالاشتراكية الماركسية، من بعضهم، فهم يقولون أنها فكرة مستوردة، وأعجب أن الذين يتكلمون عن استيراد الأفكار يتكلمون وهم يدخنون التبغ الإنجليزى ويعاقرون الويسكى الاسكتلندى ويشربون البيبسى كولا ويركبون العربات من طراز الشفرولية، والهمبر ويقرءون آخر عدد من جريدة التايمز وربما قالوا تعليقهم نفسه باللغة الإنجليزية تحللونه يوما وتحرمونه يوما... أن سنة التطور تقضى فى عالم اليوم أن نأخذ من غيرنا من الشعوب أحسن ما عندها، والمعرفة الإنسانية رصيد لكل البشرية. والنم القائمة فى السودان مستوردة فنظام الإدارة الحكومية والتعليم الغربى والتنظيم الاقتصادى كلها من الخارج. أن الفكرة الشيوعية نتاج لنضال الشعوب للخروج من الضيق وتحكم الملكية الفردية. وهى فكرة تتماشى فى اتجاهها مع أمانى بلادنا الوطنية ومع طريق الاشتراكية الذى سيسلكه شعبنا حتما – نأخذ منها كل ما يناسب تطور بلادنا وتقدمها وتقاليدها ويرفع الشقاء عن كاهل شعبنا. أما

الأفكار المستوردة بحق فهى التى تسندها دول معينة وتخصص لها الأموال وتحول الناس إلى أشلاء لا إرادة لهم مجردين عن الوطنية وأماني شعبهم. وهؤلاء يبحث عنهم فى غير أوساط الرجال ذوى الفكر الاشتراكى الماركسى، فالاتحاد السوفيتى الذى وقع على شعبه العظيم واجب بناء أول دولة اشتراكية ليس من بين الدول التى تخلق العملاء، لأنه لا يضم بين حدوده احتكارات ورؤوس أموال تطمع فى استعمار الشعوب الأخرى فتمهد لذلك بالعملاء والجواسيس ولكنه دوله اشتراكية انبثقت من النضال ضد الاستعمار والرأسمالية والانتصار على شرورهما. والاتحاد السوفيتى هو الصديق المخلص لشعب السودان، إذ آزره فى الأمم المتحدة عام ١٩٤٧م حينما وقف ضدنا [أصدقاء] اليوم فى نظر البعض. والاتحاد السوفيتى هو الذى وقف إلى جانب العالم العربى فى كل محنة ألمت به. ولهذا فهو صديق آمين لجمهوريتنا.

يا سعادة القاضى

هذا هو طريقى وهذا هو نشاطى الذى يحاول الاتهام أن يعطيه ظلالا يريدها هو ويشتهيها. وهذه هى فلسفتى فى الحياة ومن أراد إقناعى بغيرها فليعرض بضاعته. ولا أظننى أقتنع بفلسفة أرسلت الوطنيين الشرفاء إلى السجون وظلت تحاول كتم حريتى الشخصية أكثر من نصف عام ثم ألقت بى فى الزنزانة شهورا فليبحثوا عن غيرها.

(انتهى)

انتهى دفاع الأستاذ عبد الخالق محجوب

١٩ يوليو المحاكمة الميدانية الأخيرة

بعد رجوع عبد الخالق محجوب - سكرتير الحزب الشيوعى السودانى، من منفاه بمصر، تم حبسه مباشرة فى مزرعة بالباقير قضى فيها فترة من الزمن ثم نقل بعد ذلك إلى معتقل آخر بسلاح الذخيرة فى منطقة الشجرة. واستمر اعتقاله فى هذا الموقع حتى قبيل حدوث حركة ١٩ يوليو العسكرية.

فالذى حدث هو أن تنظيم الشيوعيين داخل الجيش تحت إشراف محجوب إبراهيم [محجوب طلقة]. قد نفذ عملية هروب محكمة لعبد الخالق من معسكر الذخيرة وتم إخفاؤه فى منزل العميد عثمان أبو شيبة - قائد الحرس الجمهورى الذى كان بداخل القصر.

وقد ارتبك النظام واختلطت حساباته بسبب هروب عبد الخالق محجوب واختفاءه الغامض وخاصة بعد أن أخطرت بعض المخابرات الصديقة للنظام فى ذلك الحين [بأن من يملك القدرة على تهريب عبد الخالق من داخل معسكرات الجيش، يستطيع أن ينفذ انقلابا عسكريا ناجحا].

ونعتقد أن عملية تهريب عبد الخالق محجوب من معتقلة، هـي البداية الفعلية والتمهيد العملى لحركة ١٩ يوليو العسكرية. والتـي تبعتها بعد ذلك بعض التحركات التمويهية لبعض مدبرى الحركـة. مثل سفر محمد محجوب عثمان إلى ألمانيا الشرقية، ثم اتجاه با بكر النور وفاروق حمدناالله إلى لندن.

وقد تم تنفيذ حركة ١٩ يوليو العسكرية فى نهار الاثنيـن ١٩ يوليو ١٩٧١م حوالى الساعة الرابعة بعمليـة عسـكرية جريئـة وسريعة، استمرت فى حدود خمسة وأربعين دقيقة وقد تم تنفيذهـا بواسطة ضباط ذو رتب عالية وضباط صغار وضباط صف. وتـم لهم الاستيلاء على السلطة. دون إراقة دماء وتم اعتقال قادة النظـام وأركانه. وفى مقدمتهم جعفر نميرى وأبو القاسم محمـد إبراهيـم وزين العابدين محمد أحمد عبد القادر ومأمون عوض أبو زيد. فـى نفس ذلك اليوم جميعا دفعة واحدة وقد كانوا يتناولون الغداء سـويا. وقد تم تنفيذ الاعتقال بواسطة ملازم ثانى أحمد جبارة. وتم نقلـهم فورا إلى القصر الجمهورى، الذى استقبلهم فيه هاشم العطـا قـائد الحركة وقد تم حجزهم هناك.

إن أول ظهور لعبد الخالق محجوب كان فى صبيحة اليوم الثانى للحركة. وقد قام ببعض الاتصالات والزيارات العامة المتعلقة بنشاطه السياسى كسكرتير للحزب الشيوعى. ثم تداعت الأحداث بعد ذلك، وانهزمت حركة ١٩ يوليو بعد ثلاث أيام من قيامها بعد أحداث دامية وتدخل مباشر من قبل المخابرات الدولية والعربية. ويظهر ذلك جليا فى الكيفية التى اعتقل بها قائد الحركة با بكر النور وزميله فاروق حمدناالله فى طائرة BOAC البريطانية. وقد أجبرتها الطائرات الحربية لنزول فى ليبيا. وتم تسليم القائدين بواسطة القذافى إلى جعفر نميرى وتم إعدامهما. كما تم إسقاط طائرة قادمة من العراق تحمل دعما للحركة بقيادة محمد سليمان الخليفة فى منطقة الربع الخالى بالسعودية.

كما تم دعم اللواء خالد حسن عباس باللواء السودانى الذى كان مرابطا بقناة السويس منذ هزيمة ١٩٦٧م. وقد أشار إلى تعاون القوى الخارجية ضد حركة ١٩ يوليو الرئيس السادات حينما قال [إن الحلف الثلاثى قد ولد بأسنانه وأن أسنانه قد بانت فى السودان] فى أحد خطبة فى إشارة واضحة إلى الكيفية التى أسقطت بها حركة ١٩ يوليو.

ثم ابتدأت حمامات الدم فى السودان. أولا بـــإعدام مجموعــة الضباط التى قادت الحركة. بمحاكم ميدانية دموية لم يشـــهد لـــها تاريخ السودان مثيلا. والملاحظة التى يمكن الإشارة إليـــها. هـــى الشجاعة النادرة التى تحلى بها قادة حركة ١٩ يوليو وهم يواجهون الموت. حيث بلغت بهم الشجاعة والاستخفاف بالموت إلى درجـــة أنهم رفضوا تماما أن يكون بينهم شاهد ملك. رغم كل الإغــراءات والترغيب والترهيب الذى مورس عليهم من قبل أركـــان النظــام وأجهزته.

ورغم أن قيادتهم أخطرتهم تعلم [هاشم العطا ومحجوب طلقــة] [بأن يلقوا عليهما كل التبعات فى كل ما جرى من أمـــر الحركـــة. وأنهم كانوا رهن تعليمات هاشم ومحجوب ولكنهم رفضوا جميعـــا كل هذا على أن يتحملوا المســئولية جماعيــا. وببســاطة نــادرة. ليصنعوا أول سابقة فى تاريخ المحاكم السودانية وحتى الآن. حيـث لم يتحول أحد منهم إلى [شاهد ملك] ومازال بعض ضباط الحركـــة يفتخرون بذلك ويتباهون بهذا التاريخ الناصع.

وفى خضم هذه الحمامات الدموية تفشى الرعب والزعر فى كل الأوساط، نتيجة لما تبثه الأجهزة الإعلامية بشكل متواصــــل مـــن

إذاعة وتليفزيون. وتطالب المواطنين بقتل الشيوعيين والقبض عليهم فى منازلهم واضطهادهم. وقد تم إعدام القائد العمالى الشفيع أحمد الشيخ ظهر الاثنين الموافق ٢٦ يوليو. بعد أن تعرض للتعذيب الجسدى والضرب المبرح بواسطة أبو القاسم ومجموعة من الضباط. ثم أعقبه إعدام القائد الجنوبى جوزيف فرنق يوم الثلاثاء الموافق ٢٧ يوليو.

وفى صباح نفس يوم الثلاثاء تم إلقاء القبض على الأستاذ عبد الخالق محجوب فى منطقة الهجرة بأمدرمان فى منزل عثمان حسين. وقد تم ذلك بواسطة أحد المواطنين. وقد تنقل عبد الخالق على عدد من البيوت الأخرى حتى التجأ أخير إلى هذا المنزل الذى عثر عليه فيه عند الساعات الأولى من صباح الثلاثاء ٢٧ يوليو. وتم تحويله إلى مكاتب الأمن بالخرطوم تحت حراسة مشددة ومن بعد نقل إلى معسكر [المدرعات] بالشجرة. حيث تمت محاكمته ميدانيا. برئاسة العميد أحمد محمد الحسن وعضوية آخرين من الضباط.

وعندما أرادوا الذهاب بعبد الخالق من المعتقل إلى قاعة المحكمة. رفض الذهاب معهم بهيئته تلك وخاصة إنه كان مرتديا

جلبابا ومرسل اللحية. وطلب منهم أن يحضروا له ملابس نظيفة ويسمح له بالحمام ثم يذهب معهم إلى المحكمة بهيئة تليق به كقائد سياسي. وبعد أن تأكدوا من إصراره الشديد على ذلك. تم إحضار حقيبة ملابسه.

وعلى ما أعتقد كان عبد الخالق ينتظر رسالة من المنزل تفيد بأوضاع أسرته إذ أن سلطات الأمن كانت قد اعتقلت زوجته الأستاذة/ نعمات مالك قبل القبض عليه. وقد أطلق سراحها بعد ذلك. وقد قامت هى بتجهيز حقيبة ملابسه، بطريقه تفيد بأن هذه الحقيبة قد أعدت بواسطتها. إذ اختارت بعض الأشياء التى يعلم عبد الخالق أنها تعجبها. كما أرسلت له عطره الخاص، فى إشارة إلى أنها موجودة بالمنزل وأنها هى التى قامت بإعداد هذه الحقيبة.

لقد رأى عبد الخالق بعض الأشخاص المتواجدون وقتها بمنطقة المحكمة. وأذكر منهم محمد محجوب العربى المصور بوزارة الثقافة والإعلام والتقى هناك أيضا بالصحفى الفرنسى الذى كان صديقا شخصيا له وقد تبادلا التحية والسلام وأشعل سيجاره.

ثم تحدث إليه مندوب إذاعة الـ B B C وسأله باللغة الإنجليزية [يا سيد محجوب هل تتوقع محاكمة عادله]. ورد عليه

عبد الخالق [أشك فى ذلك] وشده بشدة ثم دخل عبد الخـــالق قاعـــة المحكمة شامخا رافضا رأسه عاليا وكان هادئا نظيف الثياب وحليقا متعطرا وأنيقا كعادته.

وقبل وصول عبد الخالق إلى المحكمة اقتيد إلى مكتب مجـــاور للقاعة، كان يجلس فيه نميرى وخالد حسن عباس وقد تحدثا إليـــــه بحديث فج وسخيف حيث أن نميرى كان فى حاله سكر واضحــــة. وترفع عبد الخالق عن الرد عليهم. ومجاراتهم فى هذا السخف ثـــم اقتادوه بعنف إلى قاعة المحكمة.وكان أول سؤال وجه إليه هـو. إن كان لديه اعتراض على المحكمة.. فرد علـــى الفــور باعتراضـــه عليها. بسبب أن رئيس المحكمة هو خصم سياسى باعتباره ينتمـــى إلى جماعة القوميين العرب وهذا التنظيم هو خصم سياسى له.

ورفض اعتراضه. وتحدث عبد الخالق بقوله أن هذه المحكمـــة هى محكمة صورية وأحكامها معدة ســـلفا. وفـــى نفـــس الجلســـة أحضرت المحكمة حامد الأنصارى كشاهد لها. وقد ظهر على وجه عبد الخالق الاندهاش بسبب تلك الصداقة القديمة والمودة المتواصلة التى تربطه بحامد الأنصارى، وكان ينظر باتجاه حـــــامد بـــترقب وحيرة. ولحظتها ابتسم له حامد. مما أظهر الارتياح علـــــى عبـــد

الخالق. ليس خوفا مما يقوله حامد ولكن خوفا من أن يفجع في صديق.

وجاءت شهادة حامد الأنصارى، بقدر قامته شجاعة ورجولة. إذ تحدث عن عبد الخالق الذى يعتز بصداقته ومعرفته ونضاله. رغم بذاءة رئيس المحكمة. وللأخلاقيته فى التحدث فزجره حامد ورد عليه ردا حاسما. وبكل كبرياء وصمود فأفحمه.

ولم تستمر الجلسة بعد ذلك طويلا. ورفعت على أن تنعقد صباح الغد. علما بأن هذه الجلسة كانت جلسة سرية ومغلقة تمت فى الظلام بعيدا عن الصحافة المحلية والعربية والعالمية. ولم يحضراه من المدنيين غير فنى الإذاعة والمصور. ورفعت الجلسة على أن تعاود الانعقاد غدا.

ولكنها لم تنعقد، إذ تم تنفيذ الإعدام فى فجر الأربعاء ٢٨ يوليو بسجن كوبر. وقد ذهب عبد الخالق إلى المشنقة مرفوع الرأس شامخا يهتف بحياة السودان وحياة الحزب الشيوعى. وقد أهدى ساعة يده إلى أحد العساكر كهدية منه. وقد طلب تسليم دبلته الفضية إلى أسرته وكان معها وصية مكتوبة بخط يده. ولكن لم يتم

توصيل [الدبلة] أو الوصية المكتوبة وإنما أخذت بواسطة جهاز الأمن حسب شهادة إدارة سجن كوبر بعد ذلك.

وقد أفاد مأمور السجن عثمان عوض الله بأن عبد الخالق ذهب إلى المشنقة بخطا ثابتة وكان أنيق الثياب، لامع الحذاء، متعطرا. باسما كعريس – هكذا علق الضابط عثمان عوض الله مأمور سجن كوبر حينها.

وقد حيا الشناق الخير مرسال وهو يعتلى سلم المشنقة باسما، وبذلك انطوت صفحة أحد أفذاذ المناضلين السودانيين وأبرز قيادات الحركة الوطنية السودانية. ويمكن الرجوع إلى شهادة الأستاذ محمد أحمد المحجوب فى كتابه [الديمقراطية فى الميزان] الذى قال فيه [باغتيال عبد الخالق محجوب انطوت صفحة من التسامح والسماحة فى السياسة السودانية] وتم حرق شريط تسجيل المحاكمة والصور بيد جعفر نميرى شخصيا بعد أن استلمها بواسطة عمر الحاج موسى حسب طلبه وأفاد عمر الحاج موسى بذلك فيما بعد.



عزة للنشر والتوزيع

الخرطوم ـ السودان

ناشرون وموزعون ووكلاء دور نشر